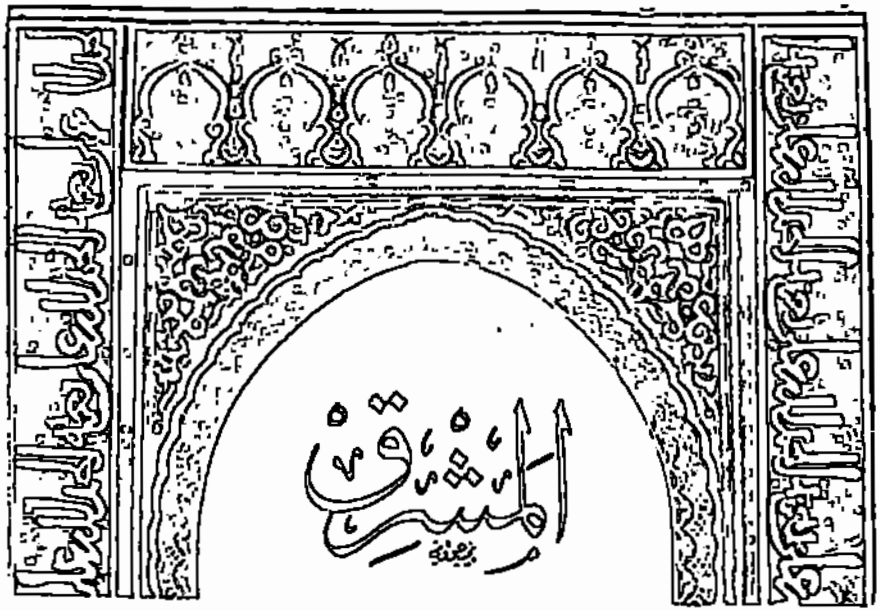

لبنان ١٩٢٩

قداسة الحبر الاعظم

بيوس الحادي عشر

يوبيله الذهبي الكهنوتي

بقلم المؤرخ بطرس غالب

افتتح الحبر الاعظم ، بيوس الحادي عشر ، يوبيله الكهنوتي الذهبي بقدّاس اقامه في كنيسة القديس بطرس ، يوم الخميس الواقع في ٢٠ ك ١ ١٩٢٨ ؛ وهو بدء السنة الخمسين لسيامته كاهناً . وقد حضر القداس عدد عديد من الكرادلة ، وهيئة سفراء الدول لدى الڤاتيكان ، واشراف رومية ، واحبار كثيرون ، وممثلو المعاهد العلمية الجيزية والرهبانيات ، ووفود المؤمنين ، وفي مقدمتها وفد مديولان يرئسه مطرانها الكردينال توزي . وفي آخر الذبيحة الالهية تقدم من مائدة الخلاص للمرة الاولى مائة فتى وفتاة ارتفعت صلواتهم طالبة العون الالهي لمن ألقيت على عاتقه مسئولية مقدرات الكنيسة جمعاء.

وبمعرض هذا اليوبيل اذاع قداسة البابا منشوراً في العالم الكاثوليكي ،

في السادس من كانون الثاني من السنة الحالية ، بدوه « *Auspicantibus Nobis* » به اعلن افتتاح سنة مقدسة غير اعتيادية افاض فيها من كنوز الكنيسة النعم والغفارين العديدة ، محرّضاً المؤمنين على الاشتراك معه في الصلوات حتى تتوثّق العرى التي تربط ابناء الكنيسة بعضهم ببعض . ويدوم اليوبيل الى نهاية كانون الاول . وقد نشر البشير الاغرّ لائحة الانعامات التي يمكن غنمها ، والشروط التي يجب تتميمها لهذه الغاية ، فاذا الانعامات وافرة ، والشروط سهلة .

واذ كان لا بدّ للمؤمنين ابناء العائلة الكاثوليكية من ان يقفوا على حياة ابيهم وراعي نفوسهم ، ليعلموا ما زانه الله به من الصفات الفريدة ، ووضع في قلبه من الحلف الابوي ، فيزداد تعلّقهم به ، واحترامهم مقامه ، ومحبتهم له ، اتيت في هذه العجالة اوجز لهم ترجمته ، مكتفياً بما يصوّر لهم بيوس الحادي عشر صورةً مطابقة للاصل على قدر المستطاع .

١

حداثة اشيل راتي ، ورهبنته ، وكرازته

ولد امبرواز داميان اشيل راتي في بلدة دَزيو ، من اعمال اقليم مديولان ، في اليوم الحادي والثلاثين من شهر ايار سنة ١٨٥٧ ، وهو سادس اخوته السبعة الذين لم يعش منهم سواه ، وشقيقه فرمو ، وشقيقته كاميلا .

وقد عُني والداه بتربيته تربية مسيحية حقة ، ساعدهما فيها خوري الرعية النبيل ، يوسف قولونيزي . ثم أُرسل الى المدرسة الاكليريكية الاعدادية فانكب على العلم اي انكباب .

لحظ رؤساؤه شمائله الغراء ، وتحققوا ميله الى الدرس والحالة الكهنوتية ، فادخلوه الى مدرسة موتزا الاكليريكية ، حيث تخصّص لدرس المعاني والبيان . ولمّا انهاها عيّن ناظراً للتلاميذ في مدرسة القديس كارلوس في مديولان ، ثم جاز امتحان البكالورية فنال . عندئذٍ أحصي في عدد طلبة المدرسة الاكليريكية الكبرى حيث تلقّى الدروس العالية مدة ثلاث سنوات لمع فيها بين اقرانه .

وكان لعمّه الخوري داميان راتي تأثير عظيم في نفسه ، وبفضله رسخت في

فؤاد ابن اخيه الفضائل الكهنوتية . فطلب اشيل الانضواء الى اخوية القديس فرنسيس الثالثة ، فقبل فيها سنة ١٨٧٤ .

ولمَّا كان اشيل يقضي عطلته في بلدة أَسّو ، كان السيد ده كالابيانا يأتي للاستراحة فيها من عناء الاشغال عند الكونت هرًا . فرأى تقوى الاكليريكي واجتهاده ، ورصانته ، فوكل اليه تدريس اصول اللغة في مدرستَي القديس بطرس الشهيد والقديس مرتينوس . وكان يجلّه ويدعوه « فتاي الشيخ » . ولمَّا تثبت من دعوته ارسله الى رومية لينجز دروسه في المعهد الاكليريكي اللومباردي ، وارسل معهُ الطالب لُوَالدي الذي رقّي في ما بعد الى كرسي مطرانية بلرمو في صقلية ، ثم الى مقام الكرادلة . فواظب كلاهما على حضور الدروس التي كان يلقيها الآباء مازلّا ، وبلريني ، وكلوتفن ، اليسوعيون المشهورون . وكان يتلقى العلوم آنئذٍ في المدرسة ذاتها جياكومو دلّاكيازا الذي انتُخب في ما بعد حبرًا اعظم وعرف باسم بنديكتوس الخامس عشر . نال الطالبان شهادة الملفنة في الفلسفة واللاهوت والحق القانوني وكانا اول من حاز هذه الالقاب في مجمع القديس توما العلمي ، الذي كان قد انشأه لاون الثالث عشر في ١٣ تشرين الاول ١٨٧٩ .

ومن شدَّة اعجاب الاب ليبراتورد اليسوعي معلمهما بهما لفت نظر البابا اليهما ، فاعرب لاون الثالث عشر عن رغبته في مقابلتهما . وفي تلك الحقبة كان قد انتشر مذهب روسميني الفلسفي في مصدر التصورات والنفس ، وهو مذهب نُسجت بردته من الاضاليل ، فاراد الحبر الاعظم ان يفهمهما الخطة الواجب سلوكها لمناهضة المذهب المذكور .

وفي اليوم العشرين من كانون الاول سنة ١٨٧٩ رقّي الملفان الجديد الى الدرجات المقدسة ، وخدم لهُ قداسه الاول رفيقه لوَالدي في كنيسة القديس كارلوس الخاص بالمديولانيين ، وبقي في رومية ثلاث سنوات عاد بعدها الى ابرشيته بصحبة رفيقه المذكور ؛ وعيّن لمساعدة خوري بَرني ؛ لكنه ما عتم ان استُدعي لالقاء دروس اللاهوت الاعتقادي والخطابة الكنسية ، فقام بمهمته خير قيام طيلة خمس سنوات . وفي سنة ١٨٨٨ قُبلَ في جمعية اساتذة المكتبة الامبروسيانية ووكلت اليه خدمة راهبات العلّية الصهيونية . فانشأ في معبدهنّ

جملة اعمال روحية منها الرياضات والمحاضرات الدينية ، لكنه صرف عناية خاصة الى منظّفي المداخن الفقراء الذين كانوا يغادرون جبالهم الى المدن للاوتراق من مهنتهم هذه في فصل الشتاء.

ولم يفُت الكردينال فرّاري مطران مديولان اجتهاد كاهنه ، فجعله مستشارًا لهُ واسند اليه عدة وظائف هامّة في ديوانه.

ومن يوم باشر الكاهن راتي خدماته الروحية ، انخرط في سلك جمعية كهنة القديس كرلوس التي كان شعارها «التواضع» وتجنّب اي مسعى توصلًا الى المراتب الكنسية . على ان بيوس العاشر اوجب على الكاهن لوّالدي قبول مطرانية بلرمو سنة ١٩٠٤ ، وبنديكتوس الخامس عشر رأى في الكاهن اشيل رّاتي صفات فريدة فاراد ان تستفيد منها الكنيسة.

٢

ادارة المكتبتين الامبروسيانية والفاتيكانية

أُسست المكتبة الامبروسيانية في مديولان سنة ١٩٠٦ ، وقد عُني بها الكردينال فردريك بورومه ، ابن عم القديس كرلوس بورومه ، وتوفق اساقفة المدينة الى جمع شتّى المؤلفات والمخطوطات فيها ، ووكلوا ادارتها الى علماء فطاحل زادوها رونقًا وترتيبًا وثروةً علمية ، واغلب هؤلاء الاساتذة ، مع مديرهم ، من جمعية كهنة القديس كرلوس. طمح اشيل راتي الى منصب استاذ في الامبروسيانية فناله بجدارته ، وما لبث ان عيّن مديرًا لها خلفًا للسيد شريباني سنة ١٩٠٧.

وكان استاذ الامبروسيانية ذا اجتهاد لا يعرف الملل ، الّا انهُ حينما كان يشعر بحاجة الى الراحة في مدة العطلة كان يتسلّق جبال الالب حتى انه نال شهرةً في هذا النوع من الرياضة البدنية . وقد اطلق اسمه مؤخرًا على احدى قمم الالب الايطالية تخليدًا لنشاطه واقدامه.

ولم يمنعه انصبابه على الدروس من الاهتمام بالنفوس ، بل كانت سلواه وتعزيته ان يزور ابناءه ، منظّفي المداخن ، ويخاطبهم بلهجتهم ويدرّسهم

التعليم المسيحي ، ويعدّهم لقبول الاسرار .

وقد نشر عدّة مؤلفات ومقالات لفتت انظار علماء العالم اغلبها في محتويات المكتبة الامبروسيانية . وبعد ان انتخب حبرًا اعظم ، أطلق اسمه على احدى قاعات المكتبة المذكورة ، ووُضع في صدرها تمثاله النصفي .

وقف بيوس العاشر على اعمال مدير الامبروسيانية ، فدعاه الى رومية وجعله وكيل مدير الفاتيكانية مانحًا اياه حق الخلافة (٢٠ شباط ١٩١٢) وفي واقع الحال ، لمّا تنحّى الاب اهرله اليسوعي عن وظيفته سنة ١٩١٤ لتقدمه في السن ، خلفه السيد راتّي الذي رقّى سلفه ، بعد ان صار حبرًا اعظم ، الى رتبة الكرادلة (١٩٢٢) . ولم يكن العبء ثقيلًا على اكتاف المدير الجديد بل قام به افضل قيام . وقد لحظ جميع زائري المكتبة ما كان عليه من دماثة الاخلاق ، والاسراع الى تلبية طلبهم . فانه كان مرشدًا اميناً عليماً يجود على المبتدئين بنصائحه ، ويدلهم الى افضل الطرق للاستفادة من دروسهم والتقدم فيها كأن العناية الالهية ارادت ان تهيّئ السيد راتي لذلك المقام السامي لتمكّنه من ان يفيد الكنيسة ، فجعلتهُ يقضي شطرًا من حياته بين العلماء والكتب يكشف القناع عن الحقائق التاريخية مستقيًا المعلومات القيّمة من اصدق المصادر ، ليتذرع بها للمناضلة عن الحقيقة ويطلع على اسرار السياسة ونيّات الرجال الذين اداروها ، حتى يتدبّر امره في معاطاته مهامّ الكنيسة .

٣

سفارته في بولونية

وكان بنديكتوس الخامس عشر يرتاح الى محادثة مدير المكتبة الفاتيكانية ، فما لبث ان وقف على ما يحويه ذلك الدماغ من المعارف ، فاختاره زائرًا رسولياً لبولونية وكانت المهمة شاقة في تلك الآونة ، لان بولونية لم تكن بعد نالت استقلالها (٢٥ نيسان ١٩١٨) ووكل اليه ان يتحرّى حالة تلك البلاد الدينية والادبية ويدرس انجع الوسائل لانهاض ذلك الشعب الكاثوليكي المبعوث من لحده ، ويؤسس تنظيم تلك الكنيسة المجدّدة شبابها . واليك بعض ما كتبه بنديكتوس الخامس عشر الى اساقفة بولونية في وصف مثله :

«هذا ذلك ، لا نكاد نرى لزوماً لتوصيتكم برجلٍ تشفع به تقواه ، وخبرته على الدين وخبرته بالامور ، وعلمه المشهور لدى الجميع . لكن ما نريد ان تعلموه هو ان لنا بهِ ثقةً بليغة تحملنا على ان نكون على يقين من ان مساعيه وجهده ستكون منها للكنيسة فوائد خطيرة في الغاية . »

ذهب السيد راتي الى پولونية واخذ يطوفها ، فاستقبله الشعب بمظاهر الفرح اما هو فاهتم بتوثيق علاقاته مع الاساقفة والكهنة ، وانّبهم ليكونوا اهلًا لادارة مقدرات امة كاثوليكية حفظت ايمانها رغم الاضطهادات المستمرة طيلة قرن ونصف قرن . وقد رأى الحاجة الى انشاء اسقفيات جديدة فعرض الامر للحبر الاعظم وطلب ان يُقرَّر ذلك بوقت قريب . ولمّا تحققت آمال بنديكتوس الخامس عشر بالزائر الرسولي ، رقّاه اولًا الى درجة الاسقفية على كرسي لبّانت ، وما أُعلن استقلال پولونية حتى رُفع مقامه الى رتبة سفير بابوي . فحضر سيامته اسقفاً رئيس الجمهورية المارشال بلسودسكي وهيئة الحكومة واعيان العاصمة (٢٨ ت ١ ، ١٩١٩) وارسل اليه البابا صليباً صدريًا تقديرًا لخدماته الجليلة . امّا السفير الجديد فكان قد سبق وقدّم اوراق اعتماده في ١٩ تموز من السنة نفسها ، وافتتح عصر العلائق السياسية بين الڤاتيكان وپولونية .

وفي غضون سفارة السيد راتي ، تدفقت الجيوش البلشفية على پولونية ، وكادت تطوّق قرسوفية في شهر آب ١٩٢٠ . رأى ذلك السفير البابوي فقابله برباطة جأش ولم يغادر مركزه ، وقد اعجب به الجميع اعجاباً . لكن الله لم يسمح بان تسقط هذه الامة المجيدة بين مخالب السوڤيات ، فارسل اليها القائد الفرنسي ڤيغان واركان حربه الذين ما كادوا يتسلمون القيادة حتى استقامت الحال واخذت الجنود الروسية تتقهقر امامهم فتمكن ڤيغان من اجلائها عن پولونية ببضعة ايام ، واستطاع ان يغادر الجمهورية الحديثة آمنة شر اعدائها (٢٥ آب) ، يرافقه دعاء البولونيين وهتافهم . وكان السيد راتي من الذين أعجبوا بمهارة القائد الفرنسي وسرّوا غاية السرور بفوزه وخلاص پولونية .

اصعب ايام السيد راتي في پولونية كانت ايام الاستفتاء في سيليزيا العليا . لكنه بحذقه وحزمه تغلّب على تلك العقبات ، وجعل حدًا لضغط بعض الاساقفة الالماني الاصل على اكليرسهم ، ومكّن الكهنة والرعايا من ان يختاروا الانضمام

الى البلاد التي فضّلوها.

وقد حاز السفير لدى الحكومة البولونية نفوذًا عاليًا استعمله فقط لمساعدة الفقراء، ومواساة المتألمين، واطلاق المسجونين ظلماً، وتوزيع القوت على الاحداث الجياع. وقد شاءت جامعة فرسوفية الكاثوليكية ان تعرب عن شكرها اياه واعجابها به فمنحته لقب استاذ شرفي فيها (تشرين الاول ١٩٢١)

٤

مطرانيّة، ورُقيّه الى مقام الكرادلة

فُجعت مدينة مديولان بفقد رئيس اساقفتها التقي النشيط الكردينال اندره فرّاري، فتوجهت حالًا الى السيد راتي انتظار بنديكتوس الخامس عشر بما انهُ كان قد خبر مقدرة سفيره، وعرف صفاته الادارية، وفضائله الكهنوتية، ورأى انهُ كفوء لان يخلف اولئك الاساقفة الذين شرّفوا كرسي مديولان بعلومهم وقداستهم. فنقلهُ من سفارة پولونية الى مطرانية مديولان (١٣ حزيران سنة ١٩٢١) وفي المجمع الكردينالي ذاته رفعهُ الى رتبة الكرادلة.

وقبل ان يستلم ادارة ابرشيته، قاد الى لورد الزوّار الايطاليين في شهر ايلول، ثم دخل مدينته الاسقفية باحتفال عظيم اشتركت فيه طبقات الشعب جمعاء. في مديولان وفي مقدمتها رجال السلطة والجيش. وحام فوق عربته طيّار نثر عليها الازهار ونشرات الترحيب. وكان بنديكتوس الخامس عشر يوم سماه مطراناً وكردينالًا، اطراهُ اطراء بليغًا للغاية وهنّأ ابرشية مديولان به.

وما كاد السيد راتي يستلم مهام وظيفته، حتى علم الجميع ان خطته لن تختلف عن خطة سلفه الكردينال فرّاري، فازدادوا تعلّقاً به. في ٧ كانون الاول ١٩٢١، دشّن جامعة قلب يسوع الكاثوليكية واخذ يهتم بالتعليم والتهذيب، ويُعنى بامر طبقة الشعب الواطية. لكن المجال لم يتسع لهُ لينفذ خطته اذ دعاه الله الى مقام الحبرية العظمى، فأُلقيت اليه مقاليد الكنيسة الرومانية ليستفيد من نبوغه وخبرته وفضيلته لا اهل مديولان فحسب، بل الكنيسة الكاثوليكية جمعاء.

(للمقال صلة)

بقلم حضرة القس عبد المسيح زهر

لا ريب في ان النفس العاقلة ، التي تميّز الانسان عن البهيمة العجماء ، لا يمكنها ان تصدر عن حيوان مهما كان نوعه ومشابهته للانسان في بعض الظواهر ؛ لان لا احد يعطي ما لا يملك . وبالرغم من هذا المبدأ الثابت الصحيح ما زال بعض ادعياء العلم يذهبون الى ان الانسان بالنسبة الى جسده ، اي من حيث انه من ذوات الاثداء ، هو الحلقة الاخيرة من سلسلة طويلة متلاحمة الاجزاء تجمعها قرابة شابكة . على ان من الفلاسفة اهل المعاني مَن يسلّم بان النفس البشرية صادرة عن الله سبحانه وتعالى ؛ ولكنّهم يتساءلون عمّا اذا كان الجسد ممكناً صدوره عن جسم بعض الحيوان . الّا ان العلم الحديث والاختبارات الطويلة ، ولاسيما اختبارات العلامة پاستور ، لم تدع سبيلًا لاعتقاد التناسل الابتدائي ؛ فكان من نتائجها في عصرنا الحاضر نسف وقلع ذلك الصرح الذي تعب وجدّ في تشييده ومعالاته دروين ولامرك زمناً مديداً ، حتى انهُ لم يبقَ اليوم من يعتقد صحة تلك المبادي الواهية .

ان الكتاب المقدس يشير في صفحته الاولى الى ان جميع البشر المنتشرين في اربعة اقطار البسيطة ، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم والوانهم وقدودهم وتراكيبهم ، متسلسلون من آدم وحواء . وقد جهد كثير من اعداء الدين انفسهم ، وحاولوا نقض قول الكتاب ، واقامة الدليل على ان البشر ليس اصلهم واحداً ، بل هم انواع كثيرة صادرة عن اصول متعدّدة . ويذهبون الى تصحيح دعواهم بوجود الانسان منذ القديم في بلاد متباعدة الاطراف ؛ فلو كان ، على زعمهم ،

الاصل واحداً لما اتصلت الفروع الى تلك الارجاء القاصية ، واختلفت شعورهم ورؤوسهم والوانهم وقاماتهم كل هذا الاختلاف .

من المعلوم ان السُلالات البشرية المنتشرة اليوم في الارض ترجع الى اربع : البيضاء ، والسوداء ، والحمراء ، والصفراء ، كما رتبها الجغرافيون . فالبيض يسكنون اوربة ، والسود افريقية ، والحمر اميركة ، والصفر آسية . وينقسم البشر بالنسبة الى الشعور الى قسمين : اصحاب الشعور السبطة ، واصحاب الشعور المفلفلة اي الجعدة . فالشعر الجعد يوجد في كل مكان تقريباً ، في اوسترالية وملازية واميركة والبلاد القطبية[1] . ثم ان اصحاب الشعور السبطة يختلفون ايضاً في ظواهرهم اختلاف اصحاب الشعور الجعدة . فكيف يُؤوَّل هذا الاختلاف مع تشابه الشعر ؟

اما بالنظر الى الراس وتكوينه فينقسم البشر الى ثلاثة اقسام : قسم منهم مسطح العارض ، طويل الوجه ، كالانسان القفقاسيّ ؛ وقسم ناتئ اللحيين كالانسان « الموتنتو » اعني سكّان رأس الرجاء الصالح ومن جاورهم ؛ وقسم عريض الوجه ، ناتئ الوجنتين كالانسان المغولي[2] . فهذه الفروق ، اذا امعنّا النظر جيداً ، وجدناها في كل مكان بين اهلنا واصحابنا ، وفي اوربة وآسية وافريقية . هذا وان الجماجم تختلف ايضاً في الطول والقصر ، وذلك لان البلاد والهواء والعادات والمعيشة تؤثر جداً في تركيب الانسان الطبيعي وجبلته ورجبه . واليك شهادة اوردها پريشار قال : « منذ قرنين ازعج الساسة البرابرة عدداً كبيراً من الايرلنديين من كونتيّتي انتريم (Antrim) ودون (Down) ، ونفوهم من بلادهم الى شواطئ البحر فسكنوها واقاموا في شظف العيش . فاليوم يبين في وجوههم ملامح تبذّأها النواظر ، وذلك ان لحيهم صارت ناتئة ينفتح فيها فم كبير ، وانوفهم اصبحت فطساً ، ووجناتهم بارزة ، وسيقانهم متقوّسة ، وقاماتهم قصيرة . فبهذه العلامات ، وبهذه القضافة والنحافة تعرف الشعوب العائشة في الشظف ، كما يُرى ذلك في البوشيين — سكان افريقية

(١) Abbé Moreux : *Qui sommes-nous ? p. 13*

(٢) Abbé Moreux: *Op cit. p. 14*

الجنوبية — وسكان ارض النار ، وهولندة الجديدة الاصليين.»

فما هو سبب هذه الفروق ؟ ولم الاوربي ابيض ، والاميركي نحاسي ، والصيني اصفر ، والزنجي اسود ؟ وهل هذه الظواهر عرضيَّة زائلة ، ام جوهرية ثابتة ملازمة لكل افراد هذه السُلالات الاربع ؟ وهل كلهم متسلسلون من اب واحد وام واحدة ، ام من آباء كثيرين وامهات متعددات ؟

لا بد قبل الجواب من تحديد النوع . فالنوع جماعة اشخاص متشابهين تقريباً ، منسولين على التلاحق من ابوين اولين . فحسب رأى اصحاب مذهب النشوء ، ليست الانواع جماعات ثابتة متباينة ، بل اشكال متباعدة عن اصلها الاول ، لكنها كلها صادرة عن اصل عام . على ان هذا الرأي بيّن الفساد مما قدّمناه في موضع آخر . فلننظر الآن اذا كان فرق جوهري بين البيض والسود يمنع نسبتهم الى اصل واحد.

اننا اذا نظرنا الى السُلالات البشرية المنتشرة فوق سطح الارض ، رأينا العلامات المختصة بسُلالة موجودة في غيرها ، ولهذا السبب لا ينتج من اختلاف الالوان والملامح ، ونتوء الوجنة ، وكبر الرأس وصغره ، وطول الجمجمة وقصرها ، وسبوطة الشعر وجعودته ، تعدّد في السُلالات ؛ اذ انهُ من الصعب ، بل من المستحيل ، وجود سُلالة متميّزة كل التميّز عن غيرها . والدليل على ذلك انك لو جمعت اتفاقاً مائة الف رجل مثلاً او اكثر ، ثم فرزت البيض من السود والحمر من الصفر ، وجعلت كل فصيلة مع فصيلتها ، وتأملت جيداً تركيب رؤوسهم وعوارضهم ووجوههم ووجناتهم ولحيتهم وجماجمهم ، لرأيت فرقاً عظيماً بين افراد السُلالة الواحدة ؛ اذ استدارة الرأس واستطالته تشملان السُلالات الاربع . فهذه الاعراض لم تحدث ولا ريب دفعة واحدة ، بل على التوالي وطول المدة . ولو كان البشر منسولين من آباء وامهات شتى لما صح ذلك فيهم ، ولكانوا ورثوا عن آبائهم بعض العلامات التي من شأنها ان تميّزهم عن غيرهم . .

اما اختلاف الالوان فسببه في الاغلب تأثير الهواء والحرّ والبرد والقوت والارض ؛ فان هذه كلها عوامل في تلوين الجلد وتصييره من بياض الى سواد او حمرة او صفرة وبالعكس . ومصداقاً لقولنا تأمل الاوربيين الذين انتزحوا

عن ديارهم وقطنوا في الاقطار الاميركية ، فانهم بعد مضيّ اربعة قرون حصلت لهم صفات الحمر . وفي هذا دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء . قال ابن سينا في ارجوزته :

بالزنج حرٌّ غيّر الاجـادا حتى كـا جلودها سوادا
والصقلب أكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

فاذا سكن السودان بلاد البيض ، ابيضت الوان اعقابهم على التدريج وتوالي الايام ، وعلى الضدّ فمن يسكن من البيض بلاد السودان ، تسودّ الوان اعقابه على طول المدى وتوالي الزمان . وما زال العلم عاجزًا عن تعليل هـذا التغيُّر . ثم ان النبات العائش في الظلمة لا يتلوَّن الّا عند رؤيته النور . خذ مثلًا خسَّة وغطّها بالحشيش ثم اطمرهـا في الارض ، ترَ بعد مدة خضرتها ذهبت واكتست عوضاً منها بياضاً . وكذلك الامر يحدث لمواليد السودان ، فانهم ساعة ولادتهم وخروجهم من ظلمة البطن ، يكونون اشبه بمواليد البيض ، لولا صُدأة تظهر فيهم اولًا ثم تتغيَّر على التدريج الى حمرة ، فكُهبة ، فسواد . وهذا التغيُّر يتم في بلاد السودان في سنة ، وفي مصر لا يتم الّا بعد ثلاث سنين[1] . وقد جعلت العناية الربانية الانسان قادرًا على سكن كل المناطق ، حارّة كانت او معتدلة او باردة ، بخلاف الحيوان الذي لا يقوى على البقاء في منطقة غير منطقته . فلا ريب اذن في تأثير الجوّ في الابدان . وهاك مثلًا آخر : ان الكلاب والطيور الداجنة في الغينه سوداء ، والضان في الهند الغربية والغينه ايضاً تستبدل صوفهـا بشعر ، وحيوان القطبين يبيضّ في الشتاء ، وعند حلول البرد تبيضّ الارانب في كندة ، ولكن اذا حُبست في اقفاصها بقيت الوانها بلا تغيُّر . ثم ان اليهوديّ اشقر في البلاد الشمالية ، واسمر في البرتوغال ، واسود في بعض جهات افريقية وآسيَّة . وكذلك الاسرة المالكة في بلاد الانكليز الالمانيـة الاصل (١٦٨٨) قد تغيّرت فصارت اليوم شبيهة بالانكليز . والعرب اهل البادية مـا زالوا هيف القامة ، صغار الوجوه ، زعر اللحى ، وعلى الضد المتحضّرون فانهم اسمن منهم ، واوسع وجوهاً ، واكثف شعرًا . ولا تنسَ ايضاً ان الظلم

(١) Moreux : *Op. cit. p. 18*

والعبودية يقرّبان الانسان الى البهيمة ، وان آكلي اللحوم اصفى الوانًا من آكلي الخضراوات . فلله عجائب في خلقه.

وقد يذهب القائلون بتعدّد اصل البشر ، دعمًا لدعواهم ، الى استحالة تمدّن الشعوب المتوحّشة . غير ان دعواهم باطلة بدليل ما يجده مرسلونا الكاثوليك بين المتوحشين من الذكاء وشرف العواطف ، والاستعداد للتمدن . ويبرهنون ايضًا لتصحيح قولهم باختلاف اللغات . على ان تعدّد اللغات لا يدلّ على تعدّد السُلالات ، لان اللغات ما هي الا ضرب من الاصطلاح والاتفاق اللذين هما نتيجة نواميس التقدّم والاجتهاد والمجاورة والمخالطة والنجاح المادّي. ولمّا كانت الكتابة مجهولة في قديم الزمان ، فلا عجب اذا اختلفت اللغات ، وتفرّعت بتفرّع القبائل ، وتباعدت بتباعدها . فاذن كل أعراض الامزجة والاخلاق والاحوال الظاهرة ، مثل استطالة الرأس او قصره ، او نتوء اللحيين والوجنات والاسنان ، وسبوطة الشعر وجعودته ، وبياض الجلد وسواده ، لا تأثير لها في وحدة النوع البشري . ولله درّ كاترفاج اذ قال : « مهما درس الانسان ثبت عنده ان كل عظم من هيكل « الانسان الرباعي » كبيرًا كان او صغيرًا ، يؤدّي شهادة على اصله لا يمكن جحدها ».وقد قال الاب مورو في خاتمة فصله « في وحدة النوع البشري » : « النتيجة ان الانسان في جوهره هو هو في كل الاماكن.وهكذا كان في كل العصور . اذن كل شيء في العلم الحاضر يثبت نصّ التوراة.وقد احسن الرسول اذ قال مخاطبًا الاثينيين الذين كانوا يتبجحون بتمدّن يفضلهم في الظاهر على سائر البشر: وقد صنع الله من واحد جميع امم الناس ليسكنوا على وجه الارض كلها. » (١ ع ١٧ : ٢٦)

ويجدر بنا الآن ان نردّ على بعض اعتراضات يرجع مجملها الى مصدرين : سرعة انتشار البشر ، وبعض الصعوبات الجغرافية.

١ً — سرعة انتشار البشر . ان طائفة يدّعون قائلين : يستحيل بلوغ البشر هذا العدد الكبير لو كانوا مولودين من رجل وامرأة فقط . ولسنا نرى سببًا للتعجب من انتشار الناس السريع بعد مضي آلاف من السنين لا يعرف احد مقدارها سوى الله.ولا ريب في ان طول الاعمار القديمة ، وصحة التراكيب ،

وقلّة الامراض ، وبساطة المعيشة ساعدت على النمو وكثرة التناسل . واي عجب في ذلك اذا كانت ذرّية الاصل الواحد تبلغ اكثر من عشرين انساً في اربعة قرون ؟ خذ مثلاً بني اسرائيل فانهم دخلوا مصر وهم سبعون نفساً ، وعند خروجهم كانوا نحو مليون ونصف مليون ؛ اذ كان فيهم ستمائة الف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسون مقاتلاً ، فضلاً عن النساء والشيوخ والاطفال والاحداث .

٢ً — الصعوبات الجغرافية . يقول بعضهم من اين اتى سكّان اميركة ، وسكان جزائر البحار الجنوبية ؟ لعلّ الفينيقيين المولعين بخوض البحار قد توصّلوا بسفنهم الى اميركة ، بعد بلوغهم الجزائر الخالدات ، ومادرة ، وجزائر اسور . ومن جملة الشعوب الذين ساعدوا على سكن اميركة الشعوب السكندينافية . فاخبار الاسلنديين تدلّ على انهم اكتشفوا الارض الخضراء اي غرينلندة واللبرادور في الجيل الحادي عشر والثاني عشر ، قبل كولمب بنحو ثلاثة قرون . فضلاً عن اتصال آسية الشمالية باميركة عند مضيق برنغ . فهنالك القارتان متصلتان تقريباً لا يفصلهما سوى مرحلتين فقط . وفي الوسط بالبحر جزيرة ، فعند حلول الشتاء وجمود المياه ينتقل المتوحشون بعيالهم فوق ذلك الجليد في عجلات تجرّها الكلاب ، ويبيتون في الجزيرة ليلتهم ، وفي اليوم الثاني يقطعون الى اميركة .

ثم ان الهنود والصينيين واليابانيين اعطوا اميركة سكاناً منهم ، لان المجرى البارد الخارج من المحيط الجامد بطريق مضيق برنغ يجرّ معه القوارب والزوارق والسفن التائهة في وسط المحيط الهادئ الى اميركة ، وقد روى بنكروفت (Bancroft) انه يوم استوطن البيض كاليفرنية اي من سنة ١٨٥٢ الى ١٨٧٥ قد وصل الى هذه البلاد ٢٨ سفينة اسيوية ، وكان بينها ١٢ فارغة فقط[1] .

ولعلّ هنالك اسباباً اخرى مجهولة . وكما ان البشر قطعوا الى اميركة بالسفن فقد قطعوا الى الجزائر الجنوبية واستوطنوها منذ زمان عريق في القدم . فاذا نظرنا الى تقاليد الشعوب الدينية ، واحوالهم في المعاش ، اضطررنا الى الاقرار بوحدة النوع البشري على كل حال .

---

1) *The Native Races of the Pacific States of North America, New-York, 1875 — 1876, t. V. p. 52.*

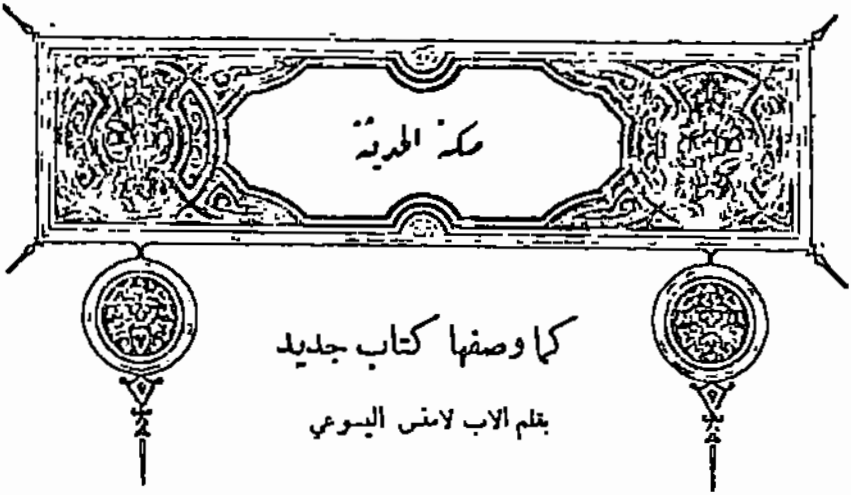

كما وصفها كتاب جديد

بقلم الاب لامنس اليسوعي

الف اللواء ابراهيم رفعت باشا كتاب مرآة الحرمين فوصفه المشرق كانون الاول ١٩٢٨) ووعد بالعودة الى الكلام فيه ، ليتسنّى للقرّاء ان يقدروا الكتاب قدره على ما فيه من ابتكار . ان يكن رجل كفوءا لوضع هذا الكتاب ، فهو بلا مراء اللواء قومندان حرس المحمل المصري في ١٩٠١ ، واميرالحج في ١٩٠٣ و ١٩٠٤ و ١٩٠٨ . فقد استطاع ، بفضل وظيفته والقابه الرسمية ، ان يشاهد ما لا بد من ان يفوت وعي الزوّار والحجّاج من العامّة . ومئات هي الصور التي اتخذها بالآلة الشمسيّة ، وابرزها في كتابه « مرآة الحرمين » ، واضاف اليها رسوماً جغرافية جيدة جدًا . ذلك مما يجعل للكتاب قيمة اثرية غير موجودة غالباً في الكتب العديدة التي سبق فيها اصحابها مؤلفنا الى موضوعه .

فخرَ المؤلف[1] بكونه « شريفاً » وباهى بانه مسلم صادق ، فقام خوّاً بمشاعر الحجّ الاسلامي ، على كثرتها ومشقّاتها . لكن ايمانه لم يعمِ ، فانه من غير ما مجاهر بالمكابرة ومن غير ما يبدي اشارة تجعلك تشكّ في صدق نيّته ، لا يخشى عند سنوح الفرصة من الاحتجاج على التجديدات التي لا تلائم دين الاسلام ، في نظره . ومن احتجاجاته قوله (ص : ٢٢) لمّا نزل من المركب الى جدّة « وفي وسط الجيانة قبر امنا حواء (المكذوب) وطوله نحو ١٥٠

---

١) راجع المجلد الثاني ص : ٣٥٥ . وانك لتجد فيها وفي الصفحات بعدها ترجمة لمؤلف باسهاب مع رسوم تصوّره في متنوّع تطورات حياته العامّة

متراً وعرضه اربعة امتار وارتفاعه متر ، عليه ثلاث قباب على الرأس والسرة والرجلين كما يزعمون » . ولهُ في الصفحة ٣١ حاشية مطوّلة لا بد ان تكون قد راقت محرّر المنار. قال : « مما لا ريب فيه في شريعتنا الاسلامية ان اقامة القباب على القبور محرمة » واعلن (ص : ٤٧٥) « قبر فاطمة مزعوماً » وقبح مراراً اكرام القبور (ص : ٤٨١) وقال:(ص : ٤٦٨) « ان تجويف المحراب سنّة نصرانية ».وشرب من ماء زمزم على اثر القدمين في حجته سنة ١٣١٨هـ. ثم استعذر فيما بعد وقال :

« وكان خليقاً بي ان اتجنب التبرك بالآثار والشرب من مواطئ الاقدام وان ادع هذه البدعة جانباً . . . ولكني كنت في هذا الوقت لما تنضج معلوماتي الدينية في المهج وشاعره ، ولم أكن وقتئذ قام الوقوف على تأثير البدع السيء في الدين ، وقد دعاني الانصاف الى ذكر الواقع ، ودعاني البصر بالدين الى انكار ما حصل » (ص : ٢٤٦)

وبعد ان عرض صورة تاريخية لمسابقات الملوك والامراء في تحلية الكعبة وميزابها وابوابها وتعاليقها بحلى الذهب والفضة قال :

« نرى من الواجب علينا ان ننبّهك الى ان انفاق اموال المسلمين العامة في هذه السبل يأباه الدين لانه من الاسراف المحظور ، وخير لنا ان تنفق هذه الاموال في مصالح المسلمين العامة.

. . . وليس من الدين في شيء ان نخلّل جزءاً من اموال المسلمين عن استثماره وانفاقه فيما يعود بنفع حقيقي على المسلمين . . . فعسى ان يوجه الملوك همهم واموالهم الى المصالح النافع ويأخذوا بانفسهم عما لا يفيد ولا يجدي »

قد يتفكه المؤلفون العرب على حساب البدوي فيجعلونهُ اضحوكةً ، ويشوّهون صورته وقد اقتفى الباشا آثار غيره[1] في ذلك فقال (ص : ٣٥):

«ولا بأس من ان نذكر لك في هذا الموطن ما يصدر من العربان ونسائهم وقت الطواف فان فيه تفكهة :إحرام العربان عبارة عن كشف اذرعهم ورؤوسهم ، وباقي جسدهم ستور وشعرهم منثور غير منتظم واكثرهم طويل الشعر مضفوره اشبه بشعور النساء عندنا ، اما نساؤهم فمحتجبات لا يكاد يبدو منهن شيء .والرجل يقول في طوافه : يا رب البيت اني جيت لا تقول ما جيت اغفر لي ولوالدي وإلا تغفر لي غصباً تغفر لي تراني جيت . يقول ذلك بصوت جهوري مزعج ويسرع في مشيه في الطواف واسعي ويأخذ الرجل يد زوجه او

---

١) اما ابن جبير فهو يحب البدو وخاصة باعراب اليمن (راجع رحلته ص : ١٣٣ — ١٣٦)

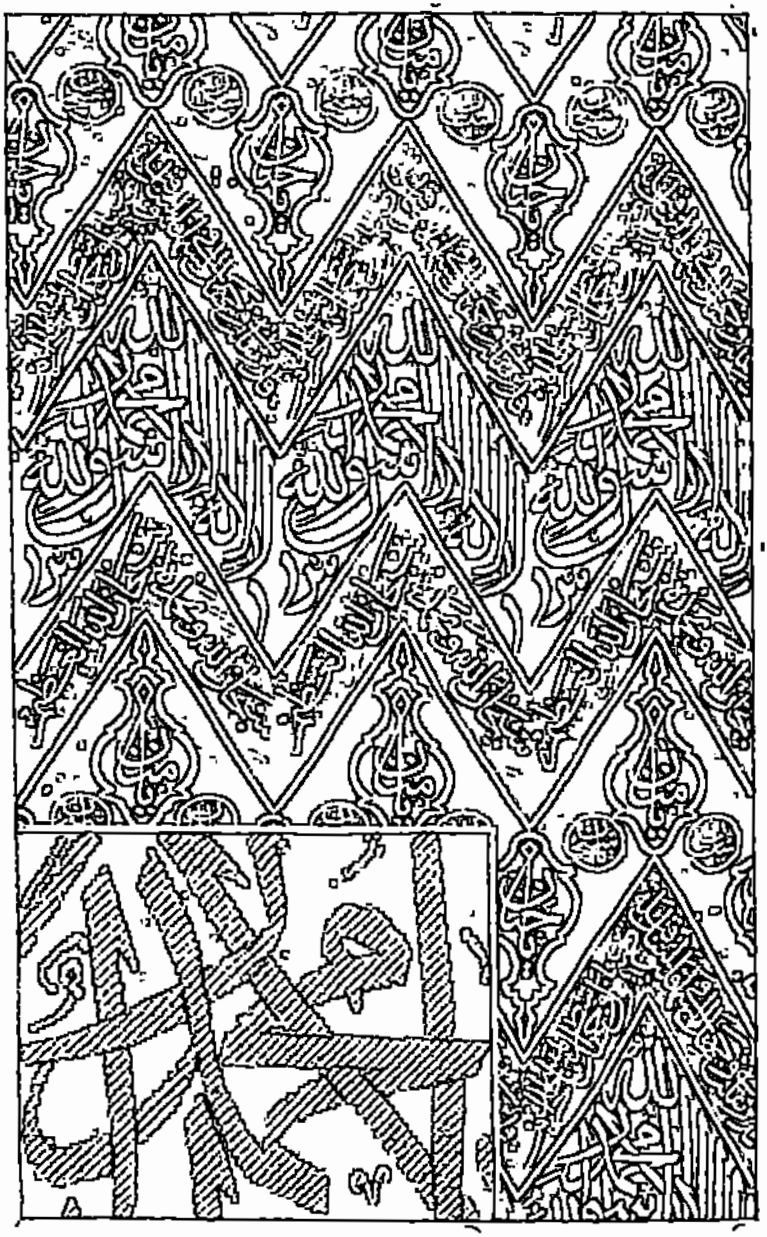

الرسم ١
منظر كوة الكعبة من الداخل

اخته او امه ويسرع بها في السير وعند ما يصل بها الى الحجر الاسود يرفعها ويضع رأسها في تجويف الحجر ، واذ ذاك تمسح وجهها وشعرها . ويقول لها : « حجي يا مره حجي » وتقبيل الحجر عندهم فريضة لازبة لا يتركونه ولو ماتوا دونه ومن كثرة زحام هؤلاء العربان على الحجر وإدخالهم الرؤوس في تجويفه حصل به خدش أصلح فيما بعد . ومات احد الحجاج اثناء الطواف من شدة الزحام . ومما سمعتهُ محاورة بين إثنتين من نساء العربان قالت إحداهما للكعبة : « يا ست ليلة [لعل تسميتها ليلة لأنها سوداء وكسوتها سوداء] ان كان جاتنا المطر في ديارنا وجانا الخير اجيب لك مكية سمن (قربة صغيرة) تدهني بها شوشتك » — لان العربان يزعمون ان الكعبة امرأة تدهن رأسها — فقالت الثانية : « حقيقة تجيبي لها ؟ » فقالت لها : « اسكتي أنا عمال أكذب عليها اذا جاتنا المطر نا اجيب » فانظر كيف بلغ أدب العربان في خطاب الرب حدًّا سيئًا وكيف بلغت من نفوسهم الاعتقادات الفاسدة . ما ذلك الا من فرط جهلهم بالدين فهل لاولئك من مرشدين .

وقال (ص : ٤٩) :

« ومن فكاهات الحجاج عند رمي الجمرات ان بعضهم كان يرمي الحصيات السبع دفعة واحدة ويخاطب إبليس بلفظة « يلعن دينك » . وبعضهم كان يرمي حصاة حصاة ويقول العبارة السابقة عقب كل واحدة ، او يقول « في عين دينك » . وبعض الحجاج لا يكتفي بالحصيات الصغيرة بل يأتي بأحجار كبيرة ويرمي بها الجمرة (العمود القائم) بل لا يرتاح له بال الا اذا هدم جزءًا من البناء ، ومنهم من يقف على البناء ويرمي ، ومنهم من يلصق به جسده ويرمي ! وقد كان من الضباط الذين معنا « اليوزباشي » عبد الوهاب حبيب افندي فلما جاء وقت رمي جمرة العقبة اخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس (الجمرة) دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منهُ .

ولكن هذه الملح لم تحُلْ دون توسعه في ذكر « حكمة رمي الجمار » (ص: ١٣٦) وسائر شعائر الحج عند المسلمين

وانما اتينا على هذه التفاصيل ليتاح للقرّاء ان يتعرّفوا الى اسلوب المؤلف . وللمسلمين وحدهم بتّ الحكم في ملاحظاته ، وفي النظرات التي اودعها كتابه في القسم الديني (ص : ٥٧ — ١٤٢)

* * *

اليك كيفية روايته لغسل الكعبة وقد اشتركَ بها في حج ١٩٠١ (ص: ٤٠—٤١) :

« في يوم الاثنين ٥ ذي الحجة دُعيت مع امير الحج وأمين الصرة وبعض الموظفين لغسل الكعبة حسب المتاد سنويًا فلبينا الدعوة وذهبنا الى المسجد الحرام . وفي الساعة الاولى العربية حضر دولة الوالي وأمين الدفاتر (الدفتردار) واللواء (قومندان) الجند المكي وبعض العظماء من الحجاج ودخلنا الكعبة وصلينا في كل من جهاتها الاربع ركعتين ودعونا الله بما

احبنا ودعوت للخديو كما دعا له الامير والامين . ثم اخذنا جميعاً في غسل أرض الكعبة من الداخل بماء زمزم وكان ذلك بمنشات صغيرة صنعت من خوص النخيل ثم وزعت علينا خرق بيضاء مبلة بماء الورد والروائح العطرية وأخذنا نمسح بها جدر الكعبة ، وقد اشتد الزحام امام بابها لاخذ مياه الغسل للتبرك بها ، والمطوفون يأخذونها في دلاء ويضعونها في قوارير

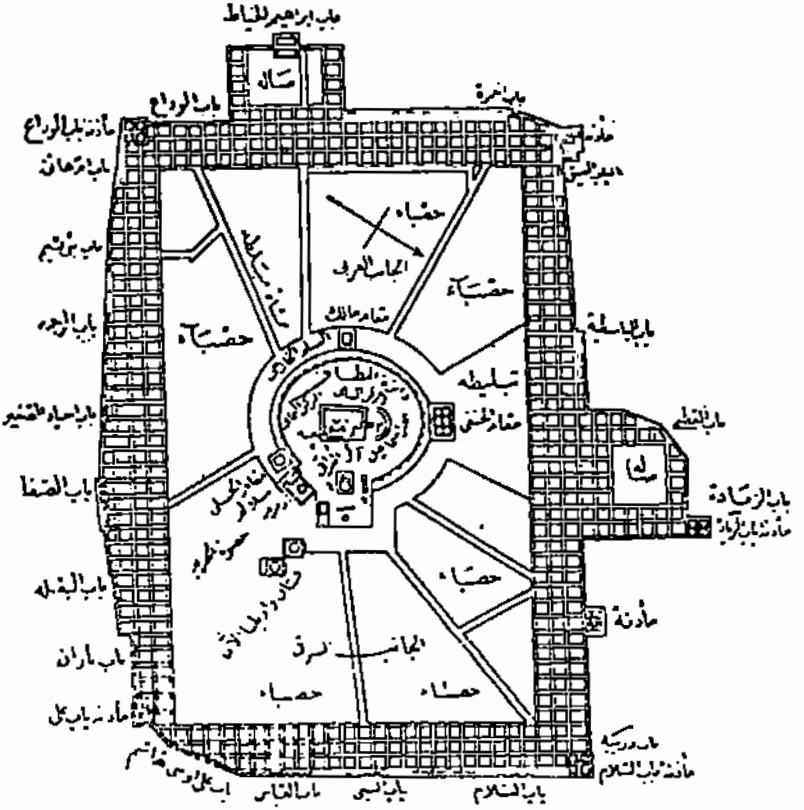

١ باب العمرة ٢ قبر اسماعيل ووالدته ٣ باب السلام او بني شيبة
٤ الحجر الاسود ٥ مقام ابراهيم ٦ منبر

الرسم ٢
رسم المسجد الحرام في مكة

يطوفون بها اتباعهم من الحجاج وكذلك يتخاطف الناس منشآت الغسل بل يتضاربون عليها وعلى الماء ، ولدى تزولي عن الكعبة وضعت ما معي من المنشات في منشفة كبيرة (بشكير) استحضرتها معي لغسل الكعبة بها ولاحفظها بعد تبركاً ، وقد زاحمني الحجاج وعصر بعضهم المنشفة لعله يجد بها قطرة ماء ومنهم من مسح بها وجهه ومنهم من مسها ومسح على عينه وجسمه . »

واليك ايضاً وصفهُ للحجر الاسود نسخناه بحرفه لدقته (ص : ٢٦٤):

« وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج الحجر الاسود الذي هو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الارض متراً ونصفاً ، والحجر اسود اللون ذو تجويف اشبه بطاس الشرب وقد حدث فيهِ الآن تشقق وعمل لهُ في سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣) غطاء من الفضة ، في وسطه فتحة مستديرة قطرها ٢٧ سنتيمتراً ، اعني شبراً وثلثاً ، يرى منها الحجر ويُستلم »

كل يعرف مـا لجبل حِراء من الاهمية في حياة نبي المسلمين - لانه كان يختلي في جرده الموحش ، وفيه ، على ما جاء في السيرة ، زاره الملاك جبرائيل لاول مرة . وانك لتجدنَّ في الصفحة ٥٦٠ من الكتاب رسماً لغار حراء قلّما يقف المرء على امثاله . ورغم الذكريات المتعلقة بهِ ، قليلون هم الحجاج الذين يجهدون النفس في زيارته ، لما في هذه الزيارة من المشقات والمتاعب . اما المؤلف فوجد في نفسه من البأس ما حمله على زيارة غار حراء . ومن ثم وصفه ، واليك وصفه بحرفه لما فيه من فوائد جديدة (ص : ٥٨) :

«وقد صعدنا هذا الجبل في ٣٥ ق مع ان ارتفاعه حوالي ٣٠٠ متر ولكنه يكاد يكون عمودياً فلذا كان صعب المرتقى واضطررنا الى الاستراحة مرتين اثناء الصعود واغمي على بعض الضباط ولولا ما معنا من الماء الذي رششنا بهِ وجوههم لحصل ما لا تحمد عقباه ، ولذا يجمل بمن رام صعوده أن يستصحب بعض المياه خصوصاً في آونة الحرّ ، وقبل ان نصل الى قنة الجبل بثلاث دقائق وجدنا خزاناً نحت بالجبل لحفظ مياه المطر يبلغ طوله ٨ امتار في عرض ٦ وعمق ٤ ولهُ درج للوصول الى قاعه وكان خاوياً من الماء . »

ونصح المؤلف لزائري حراء ان يتقوا شر الاعراب الكامنين لسلب الحجّاج قال (ص : ٥٩) :

«وقد بلغني ان اعرابياً قتل حاجاً فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل لهُ : « قتلته من اجل ريال ؟ » فقال وهو فرح : « الريال احسن منهُ »

واليك الآن وصف مكة (ص : ١٧٨) :

«مكة واقعة على ٢١° و ٢٨ ق عرضاً شمالياً ، وعلى ٣٧° و ٥٤ ق طولاً شرقي باريس ، وترتفع عن سطح البحر الأحمر بنحو ٣٧٩ متراً ، وهي عاصمة بلاد الحجاز ، وطولها من الشمال الى الجنوب ميلان ، وعرضها شرقاً من جبل ابي قبيس الى اسفل جبل قعيقعان من الغرب ميل واحد ، يقطع الماشي طولها في نحو نصف ساعة ، ومع كون عرضها دون طولها يقطع في زمن اكثر مما يقطع فيه الطول ، وذلك لوجود اماكن على تلال في كل من جانبيها . وهي ببطن وادٍ يحيط بهِ سور من الجبال الشامخة قد بنيت طيها الحصون المحكمة ، وليس بسورها الجبلي ثغرات إلا حيث مداخلها الاربع ، ففي الشمال الشرقي الطريق الى منىً ، وفي الجنوب

الطريق الى اليمن وفي الشمال الغربي الطريق الى وادي فاطمة ، وفي الشرق الطريق الى جدة »

واذا كان الشتاء مطيراً — وهذا من النادر في الحجاز — تسارعت المياه على سفوح جبال سراة المشرفة على مكة شرقاً ، الى بطحاء المدينة . فمن ذلك تفهم كيف كانت تلك المدينة منذ القدم معرضةً لخطر السيول في الشتاء[1] . واخبار هذه الكارثة تملأ التواريخ القديمة من امثال كتب الازرقي والفاسي وغيرهما . وكان رفعت باشا نفسه شاهداً عياناً لها فوصفها وقال (ص: ٢٠٠) :

«وفي يوم السبت ٢١ ذي الحجة من سنة ١٣٢٥ (٢٥ يناير سنة ١٩٠٨) في حجتي الرابعة نزل مطر شديد وجرى السيل من كل جهات مكة بشكل لم يسبق لهُ مثيل منذ ٣٣ سنة على ما بلغني ، وكان السيل اشبه بماء النيل المنحدر وكان عرضه وهو ينحدر من جبال جياد نحو ٥٠ متراً وسمعنا دوي صاعقة بجياد مثلت صوت جملة من المدافع الضخمة اطلقت في لحظة واحدة ، وقد ملأ الشوارع حتى كان عمقه في شارع وادي ابراهيم مترين تقريباً ، ولذلك دخل المسجد الحرام من ابوابه وانقطع المرور من الطرق الّا بالسباحة ، وكنت ترى الشقادف ورحال الابل سابحة في الماء وتسمع دوياً للماء كأنهُ امام القناطر الخيرية وقد فتحت عيونها وتجمد الناس وقد خرجوا من المسجد الحرام من باب الرحمة يستمدّون لاجتياز هذه المياه وقد كشفوا عن سوقهم ورفعوا ثيابهم الى ركبهم ودون ذلك واكثر .»

وقد نعت القرآن مكة (١٤ : ٤٠) فقال انها « وادٍ غير ذي زرع » وهذه الآية تنوه بان المملكة النباتية لم تكن ممثلةً فيها الا تمثيلاً سيئاً . وترى الوثنيين من قريش يعجزون نبي الاسلام بان يغرس لهم بساتين وينفجر لهم ينابيع كينابيع الشام . ومضى قرن على وفاته ولم تتغير الحالة عما كانت عليه . ولعل الحيقطان الشاعر صدق اذ قال في البلدة :

وليس بها مثنًا ولا متصيَّف ولا كَجُرانا ماؤها يتفجّرُ
ولا مرتع للدين او متقنّصٌ ولكنَّ تجرًا والتجارة مقفرُ[2]

على ان الزمان مضى ، واحتفرت قناة سميت عين زبيدة باسم امرأة هارون الرشيد (ص ٢١٢ وما بعدها) ومنها سقيت البساتين . ووصف المؤلف بستان الشريف عون الرفيق فقال (ص : ١٩٦) :

« والمزدوع من ارض البستان نحو الربع ، وفيهِ شجر الجوافة والجوز الهندي والبرتقال والليمون والنخيل والعنب والورد والبرسيم الحجازي والكرنب والكرات والباذنجان

١) راجع كتابنا « مكة قبيل الهجرة » (ص: ١٠٦ وما بعدها) .
٢) الجاحظ : ثلاث رسائل (ص : ٦١)

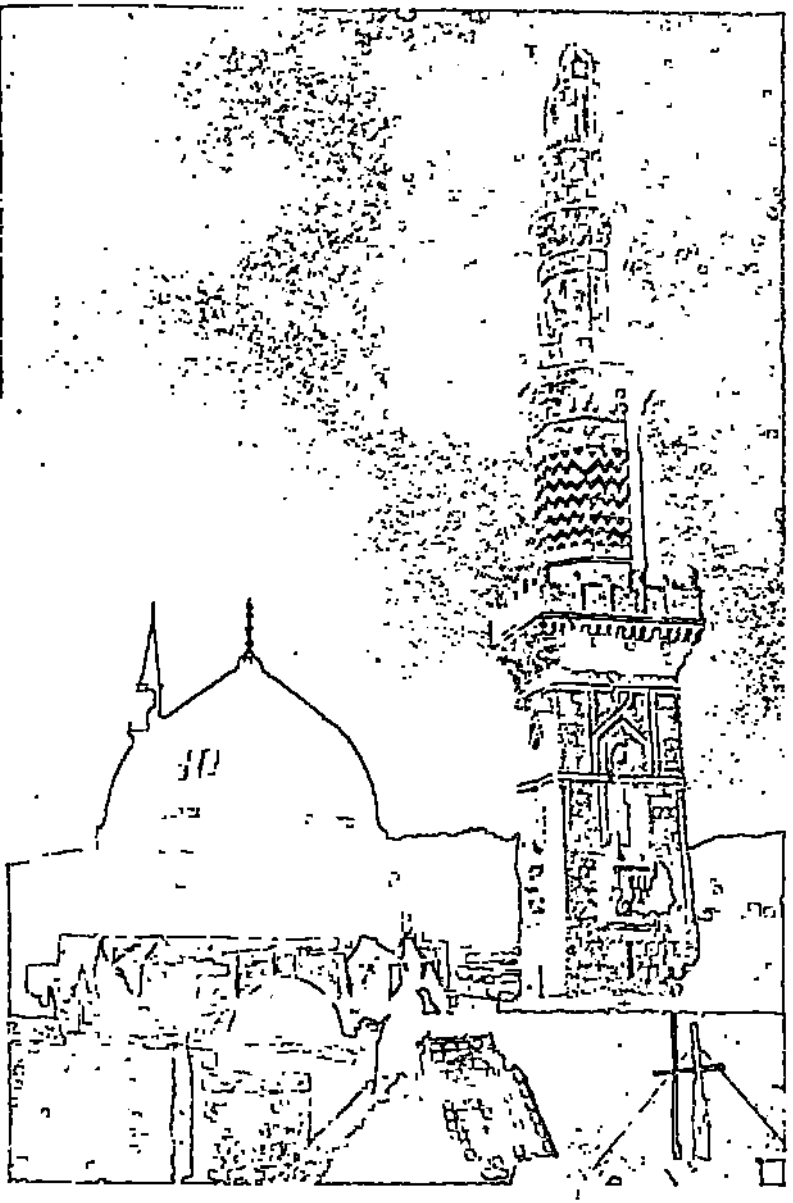

الرسم ٥

قبة النبي محمد ، وابي بكر ، بالمسجد النبوي بالمدينة

وقد اخذنا هذا الرسم ، هم ما تقدمه ، عن « مرآة الحرمين » باذن من المؤلف ، حضرة اللوا
ابراهيم رفعت باشا

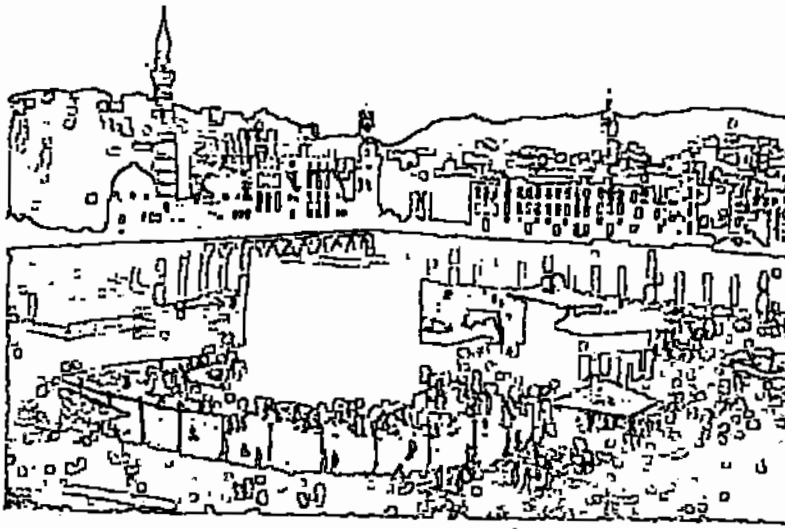

الرسم ٣
منظر الكعبة بالمسجد الحرام في مكة

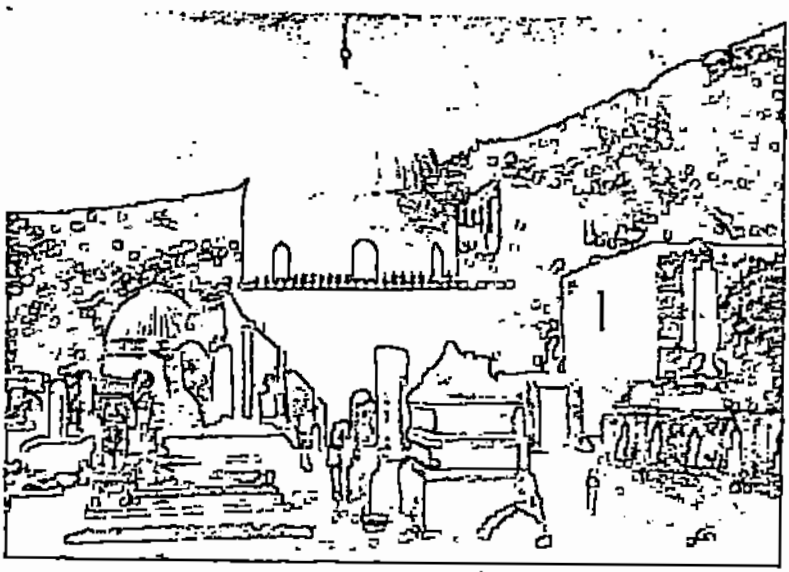

الرسم ٤
قبة السيدة خديجة بالمعلى (مكة)

والطاطم الى غير ذلك ، ولا يفوتنا ذكر ما فيه من شجر الكادي الذي يستخرج منهُ عطر الكادي ذو الرائحة الجميلة ، وشكل الشجرة كالصبارة الّا ان طولها يفوق المترين ولها جذوع كثيرة نابتة في الارض ، وورقها عريض اشبه بسعف النخل من جانبه العريض ولهُ شوك كثير .»

واذا انتهت فرائض الحج كثيرون من الحجاج الاجانب يستوطنون مكة . ذلك ما يزيد في اختلاط السكان ويبلبل لهجتهم . واليك في ذلك فوائد شائقة (ص : ٢٠٢) قال ناقلًا كلام البتانوني :

« والذي يؤسف لهُ ان هذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون في الاكثر بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوّهة او فارسية او تركية وهم يشوّهون المضاف فيقولون في «هذا حقُّ فلان» مثلًا: «هذا حقّ فلان» مع ابدال القاف جيماً مصرية ، ومنهم من يمدّ الحرف المنوّن فيقول: « هذا حقون فلان » او يؤنث لفظه فيقول : « حقة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل في صيغة الامر للجمع فيقولون: « هيّا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا . ويستعملون الترخيم في غير المنادى فيقولون «قم لِعِنا » اي قم لنتدنا . ويقولون في الإبل : « البِل» بكسر الباء وفي الجبل « البَل » بفتحها ويقولون كبتًا اي كملنا (خلصنا) ويقولون : « وصابتي » في واصبتي ، و«الّاسن» في اليمن ، وعمًا يكثر سماعه منهم قولهم : « دَحين » في هذا الحين و « ازهَم فلان » في ادم فلانًا ، ويعبرون عن الرجل بلفظ « زلَمة » ويجمعون الرجل على « اوادم » ويقولون « زكّنه » اي فكره او نبه ، و«قل كذاه» اي اعمل كذا ويقولون «ابيض» للاستحسان و« سَع»في اصنع او اتقن و«أتمصص» في اجلس و«فصّخ حذاك»اي اخلع نعالك ، ويقولون : «بشلح» للباذة ، و«شاية» للقفطان ، و« امرح » : أجر ، و« الوَدَن » للقدان من الارض ، و « الشادة » للكوفية ، و « زكن عليه » اي أكد عليه ، و « زل » بمعنى مر ، و « أندر » بمعنى أخرج ، و « الّا » بمعنى نعم .»

وقدر المؤلف (ص : ٢٠٣) عدد سكان مكة باكثر من ١٢٠,٠٠٠ نفس . وعدد المستخدمين بالمسجد الحرام زهاء ٧٠٠ ، وفيهم ٥٢ آغا (خصي) و ٢٠ مكتّاً ، و ١٨١ غسالًا للقناديل الخ (ص : ٢٦٠) واليك وصف الحفلة التي يقيمونها لخطبة الجمعة في المسجد الحرام (ص : ٢٥٤):

« والعادة الآن بل ومن قديم الزمان انهُ اذا اراد الخطيب ان يخطب للجمعة يقبل بين شخصين من الاغوات يتهادى بينهما بيد كل منهما راية ، ثم يعمد الى الحجر الاسود فيقبله ويدعو عنده ، ثم يقصد الى المنبر بين الاغوين وامامه شخص يضرب بالقرقعة — عود به جلد رقيق — في الهواء فيسمع من في داخل المسجد وخارجه صوتها الشديد ، ويقصد بذلك اعلام الناس بخروج الخطيب ، فاذا ما كان على باب المنبر ناوله شخص هنالك سيفًا وثبّت الرايتان بجانب المنبر ، فاذا ما رقي الدرجة الاولى ضربها سيفه ضربة مسمعة ، وكذلك يفعل في

الدرجة الثانية والثالثة ، فاذا ما وصل الى العليا فعل جا كذلك ثم يدعو بدعاء خفي ويسلم على الناس يميناً وشمالاً فيردّون عليه ، ثم يأخذ المؤذنون على ظهر زمزم في الاذان الثاني وبعد الفراغ منهُ يشرع في الخطبة .»

ولمَّا كان هذا الوصف شبيهاً بما تركه لنا احد معاصري صلاح الدين اعني به ابن جبير[1] فقد خالجنا السؤال: الم يقتبس المؤلف المصري شيئاً من المؤلف الاندلسي الذي سبقه ؟

رويْنا بعض مواضيع المؤلف بحرفها ، واخذنا عن كتابه الرسوم الواردة في هذا المقال شاكرين ، وحسبنا ان نحيل القرّاء على الكتاب فسوف يجدون فيهِ معدناً من التعليقات عن دولة الحجاز ، وخاصة على عهد بني عثمان ، وقد خبَّ المؤلف حجّاته الاربع في ذلك العهد[2] وسيجدون فيهِ ايضاً ان الاعراب لا يزالون من صميم ولد اسماعيل (تكوين ١٦ : ١٢) و « سرّاق الحجيج » كما نعتهم الحديث . فانهم في يومنا لا يزالون كاجدادهم ينظرون الى الحجّاج نظرة الصياد الى الطريدة . هذا ما اختبره المؤلف بنفسه . لانه لمَّا لم يكن يوفّق الى ملاينتهم بالاصفر الرنان ، كان يضطر الى اطلاق البندقيات والمدافع ليخترق طريق المحمل ، وعسير علينا ان نغالي اذا ما اطرأنا سياسته وحزمه في مثل تلك الظروف .

١) رحلة ابن جبير ، الطبعة الثانية (ص : ٩٥ – ٩٦)

٢) في الصفحة ١٤٥ السطر ٣ عُربت العبارة (Arabia Petraea) المعروفة من الاقدمين بهذه الكلمات : « بلاد العرب الحجرية » . فالتعريب مخالف للمعنى . نعم ان الكلمة (petraea) معناه الحقيقي حجرية ، لكنه مذهب هنا الى «بيترا» اي وادي موسى الحالية . وهذه عاصمة النبطيين ومنها اخذت شبه جزيرة سيناء اسمها . اما السموأل الشاعر اليهودي فكانت اقامته في تيماء لا في خيبر (ص : ٤٤٦)

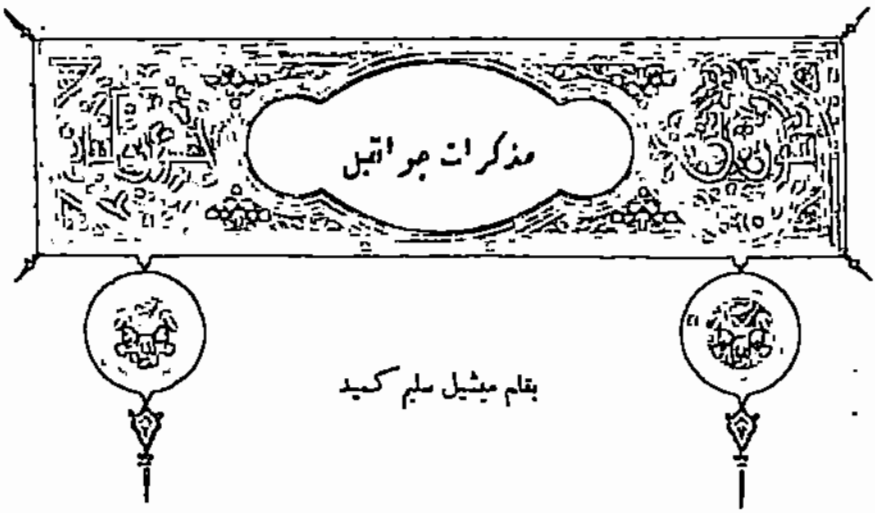

٢

« وبالفعل ، حين قذفونا باول قذيفة ، ركعنا كما نصحنا ، على ركبنا ، فسقطت هذه الرمية الاولى امامنا ، بين اثنين من قلاعنا ، حيث كان يشتغل الجيش في ردم النهر[1] ، وقد كان هناك رجال خُصّصوا لاخماد النار ، وحيث ان المسلمين لم يكن بامكانهم رميهم بالنار ، لداعي وجود جناص السرادقات ، التي اقامها الملك . فكانوا يرموننا بالقذيفة ، عموديًا نحو السماء ، ولكنها كانت تعود فتنزل عليهم .

« ومن طبيعة هذه النار الاغريقية انها تشبه في مقدمها برميل خمر ، ولها ذنب طويل كأطول الرماح . وحين وصولها ، تحدث جلبة عظيمة ، حتى يخال انها صاعقة انقضّت من السماء ، وتظهر كتنين ملتهب طائر في الجوّ . وما تحتويه من الكمية العظيمة من النار يسطع بنور شديد ، حتى يمكن المرء ان يرى المعسكر ، كأنه في وضح النهار .

« وقد رمونا بهذه النار ثلاث مرّات ، وبالمنجنيق اربع مرات . وفي كل مرة سمع ملكنا القديس لويس قذفنا بالنار ، كان ينهض من سريره ، ويلبس

---

١) كان الصليبيون قد عسكروا بالقرب من النيل ، وارادوا سدّ مجراه الاصلي ، وتحويله الى مجرى آخر ، كي يقطعوا الماء عن جيوش المسلمين ، فيضطروهم الى التسليم . ولكنهم لم ينجحوا . اذ كان هؤلاء لهم بالمرصاد يراقبونهم ، ويدورهم وسّعوا المجرى الاصلي من الجهة الاخرى ، وابطلوا عمل الصليبيين .

ثيابه ، ويرفع يده نحو السيد المسيح ، باكياً: «ايها الرب المولى ، احمِ رجالي» واعتقادي ان صلواته هـذه نفعتنا لدى الحاجة . وقد كان يُرسل الينا ، عند كل اطلاق قذيفة اثنـاء الليل احد حجّابه مستفهماً عنّا ، ليرى هل حصل لنا ضرر بهذه النار .

«وصدف مرة ان سقطت النار بالقرب من احدى القلاع ، فهرع اليّ احد الفرسان ، المـدعو لبيجوه ، من رجال السيّد دي كورتني ، قائلًا : «مولاي ، اذا لم تساعدنا ، هلكنا حرقاً ، اذ ان المسلمين ارسلوا علينا وابلًا من السهام ، بينما النار تتقدم كسور نحو القلعة.» ويوثبة كنّا هنالك ، فوجدنا ما قاله صدقاً وحاولنا اخماد النار ، ولكن قبل ان ننتهي قذفنا المسلمون بوابل من السهام ، من الناحية الاخرى للنهر.»

* * *

ذكر البدو

وجوانثيل يذكر عن البـدو انهم اتباع شيخ الجبل ، وهم بالحقيقة ابعد عن ان يكونوا من مريديه ومحبّذيه ، وهو الذي يطلب من اتباعـه التضحية ، والخضوع الاعمى للموت ولـذا كان من المستبعَد ان يختار شيخ الجبل المرعب خدمه واتباعه من البدو . ولعلّ جوانثيل حين كتابته هـذه المذكرات ، بعد تلك السنوات الطويلة التي مضت على رجوعه من الاراضي المقدسة ، خلط بينهم وبين الاسماعيليين . وعلى كل حال ، علم بنا نرى ما يحدثنا به عنهم :

« .. بما ان هذا يدخل ضمن موضوعي ، فلاحدثنكم عن هؤلاء البدو . انهم لا يؤمنون بمحمد ، بـل بشريعة علي ، عم محمـد (كذا) ؛ كما انهم يؤمنون بشيخ الجبل ، الذي يعول الحشّاشين . وهم يعتقدون ان من يموت لاجل سيّده ، او لاي عمل طيّب ، فروحه تحلّ في جسد احسن واسعد من جسدها السالف ، ولهذا السبب لا يبالي الحشّاشون بالموت ، في تنفيذ اوامر شيخ الجبل اذا قُتلوا ... والبدو لا يسكنون البلاد والمدن ، ولا القلاع ، بل العراء . وعندما يكون الطقس مكدرًا نهارًا ، او في المساء ، يضعون نساءهم واطفالهم تحت نوع من الخيام ، التي يصنعونها من دوائر البراميل ، مضروبة على دكاتر

منصوبة ... وعلى تلك الدوائر يضعون جلود الغنم ، المسأة بالجلود الدمشقية بعد دبغها بحجر الشبّ . والبدو يغطون كل اجسامهم ، وافخاذهم ، وارجلهم بجلباب من الجلد . واذا امطرت السماء ، أو تقلب الطقس ، يلتفون بها ... وفي اليوم التالي يضعونها في الشمس ، ويصلحونها ، حتى تصبح كأنها لم تبلّل اثناء الليل .

« انهم يعتقدون ان الرجل ، لا يموت الّا في يومه . ولذا تراهم لا يحملون اسلحةً للدفاع . واذا ارادوا لمن اولادهم يقولون لهم : « لتكن ملعوناً ، كالافرنج ، الذين يتسلّحون خوفَ الموت! » وفي المواقع سلاحهم عبارة عن الحربة والرمح فقط ، ويلبسون قميصاً كالكهنة (كثونة) ، وعلى رأسهم لفافة من القماش ، وهي تمرّ تحت ذقونهم ، فتزيد منظرهم قبحاً وسماجة ، لسواد شعر رؤوسهم وذقونهم .

« هم يعيشون من البان ماشيتهم ، وكي يحصلوا على طعام مواشيهم ، يتناوبون حق الانتجاع من اسياد الاراضي . وعددهم غير معلوم ، لان منهم في مملكتي مصر والقدس . وفي كل اراضي المسلمين والزنادقة ، وهم يدفعون كل عام ضرائب كبيرة . »

* * *

ذكر الوباء

وقد ابتلي جيش الصليبية بمرض مخيف ، وذلك بسبب القحط ، وعدم وجود غذاء نظيف ، فقد اضطرّوا لأكل اصناف من السمك تأكل الجيف . والجيف كما نعلم تسبب الاوبئة . فبأكلهم هذه الاسماك الحقيرة ، انتشر المرض المريع في الجيش ، وأصيب به عدد عظيم . وهذا المرض يتسبب ايضاً من فساد الدم . اما الغلاء فبلغ حدّاً فاحشاً ، حتى ان ثمن البيضة الواحدة بلغ ، في عيد الفصح ، ما يقرب اليوم من ثلاثة غروش مصرية ، او ثمانية عشر غرشاً سورياً . وهكذا قل عن باقي الاشياء والحاجيات ، وقد أصيب جوانفيل بهذا الداء الوبيل ، في اواسط الصوم . ومما يدلنا على جلَد اولئك الفرسان ، وشدة اعصابهم ، ومتانة اجسامهم ، ما حصل لهُ اثناء مرضه . فانه بينما كان ملقىً على سريره ،

يعاني امرّ الاوصاب ، واشدّ الآلام ، من دائه الشديد ، كان امامه كاهنه ، المصاب ايضاً بذات الداء ، يُقيم القداس في غرفته ؛ فاذا به قد تمايل وكاد يسقط اوانَ تقديم الذبيحة الالهية . فما كان اسرع جوانفيل بنهوضه من فراشه حافياً ، حتى تناول الكاهن الثعبي بين يديه ، وسنده الى ان اتمّ الذبيحة بكل هدوء . على ان هذا القدّاس كان آخر ما قام به الكاهن المسكين . ان ما فعله جوانفيل يستحقّ الاعجاب ، فقد قام بواجبه كمسيحي وكشهم باسل يغار على دينه ، على الرغم من انه كان يتألم اشدّ الآلام المرة ، اولاً من الجروح التي أصيب بها في المعارك ؛ وثانياً من الحمّى التي كانت تنهش اعصابه ولحمه ؛ وثالثاً من الزكام الهائل الذي كان يشعر به يتشى في عروقه من رأسه الى انحاء جسمه . ولكن جسمه الحديدي ، جسم فرسان القرون الوسطى ، فرسان الصليبية الابطال ، تغلّب امام الواجب ، فساعد الكاهن المسكين المحتضر على اتمام قداسه الاخير .

* * *

اسر الفريس لويس وجوانفيل

وبسبب هذا المرض ، المتفشي بين الجنود ، قُرّر الانسحاب . فمنهم من امتطى صهوات الخيل كالملك لويس ، قاصداً دمياط ، وقد اسره المسلمون في رجوعه ومنهم من ركب المراكب كجوانفيل الذي أسر ايضاً بعد انسحابه بيوم ، وقد حاصره المسلمون في وسط النيل ، فالتزم ان يسلم السلاح بعد ان اشاع احد مجّارته انهُ ابن عم الملك . وهذه الاشاعة ، وان تكن انجته من الموت ، فانها سببت لهُ عذاباً هائلاً ، فان المسلمين اذاقوه كؤوس الآلام . اذ انه ، حين احاطت به مراكبهم ، واعلن مجّارته انهُ ابن عم الملك ، طمعاً في انقاذه ، وثب احدهم الى مركبه ، قائلاً لهُ : « مولاي ! اذا لم تتصرف بحزم ، هلكت . فانه يجب ان تثب من سفينتك ، الى حافة حيزوم هذا المركب . اذا فعلت ذلك ، نجوت واعملوك . فان همهم الاهم ، نهب سفينتك . » فأجاب جوانفيل ووثب . ولكنه تقلقل ، وكاد يسقط ، لو لم يسنده الرجل . وهناك تألّب عليه مَن في السفينة ، فرموه الى الارض ودحرجوه ، وكل منهم يطلب

قتله كي ينال الشرف العظيم بذلك. وكانوا من حواليه ينادون: « ابن عم الملك ! ابن عم الملك ! ». وفي هذه الاونة شعر المسكين بالسكين تحزّ عنقه. ولكن نعمة الله ادركته ، فانقذته مما كان فيه اذ تداخل احد فرسانهم في الامر ، وحمله الى غرفة المدافعة في السفينة حيث رفعوا عن رأسه الخوذة ، والقوا عليه غطاء له . وهناك اخذته قشعريرة المرض ، ثم رعدة الخوف . واتفق ان طلب ماء للشرب ، وما كاد يشربه حتى خرج من انفه. فنادى رجاله ، واخبرهم انه مائت لا محالة ، اذ في حلقومه ثقب . ثم اراهم اياه ، فبكوا تحسرًا . ولما رأى الفرسان المسلمون بكاء رجاله ، تحوّلوا اليهم ، واستفهموا عن السبب ، فاخبروهم بذلك . فاشار احدهم على الفارس ، الذي انقذه قبلًا ، ان يعطيه دواء . فنفعه الدواء وشفي بعد يومين.

وقد قتل المسلمون جماعة من فرسان الصليبيين الصغار ، الذين ابوا جحود دينهم . وفي تلك الآونة ، ارسل السلطان رسلًا الى الملك لويس يساومونه ، على قيمة الفدية ، محاولين اولًا ان يحصلوا على مقاطعة في فرنسة ، فردّهم الملك بإباء . ثم سألوه اعطاءهم بعض الحصون في فلسطين ، فرفض ذلك ايضًا ، اذ ليس هي ملكه ؛ ولو كانت كذلك لما سمح بها . وبعد اخذ وردّ طويل ، وعدهم الملك ان يدفع لهم خمسمائة الف دينار ذهبًا (ما يقارب عشرة ملايين من الفرنكات ذهبًا) فدية لرجاله . ولكنه هو شخصيًا لا يثمن. وانما يعطيهم دمياط كفدية عنه . ولما اخبر السلطان ذلك ، قال : « بحق ديني ، ان هذا الافرنجي عظيم . فهو يرفض المساومة على هذا المبلغ العظيم من الدنانير . اذهبوا وخبّروه ، اني سأدفع عنهُ ، من الفدية ، مائة الف دينار ! »

وفي تلك الآونة ، كانت مشادّات بين السلطان والامراء انتهت بثورة هؤلاء ، وشهرهم الحرب عليه ، ثم حصروه في قصره الخشبي البديع ، واشعلوا فيه النار. قال جوانفيل في ذلك : « انني لم انظر نارًا كهذه بهيئة عمودية قط »

وقد قبض الامراء بعيد ذلك على السلطان المنكود ، وضربوا عنقه . ولست اتمالك ان امر على هذه الحادثة ، دون ان ارويها ، ففيها تتجلّى اخلاق القديس لويس تماماً ، وعظته وشرفه ، وعزّة نفسه الطيبة . فان احد فرسان

المسلمين ، اخرج قلب السلطان الصريع من صدره ، وحمله على رأس سيفه ، وتقدم الى الملك بيديه المخضّبتين بدماء مولاه التعس ، قائلاً : « ماذا تعطيني انا الذي قتلت عدوّك ، الذي كان يقصد قتلك ، لو افسح لهُ ؟ » ولكن الملك ادار وجهه ، ولم يجبه . لم يجب ذلك الذي يتهجّم على سيّده ووليّ نعمته ، ويلطخ يده بدمائه ، ثم يسارع اعداءه عليه ؛ كما لم يجب ذلك الرجل الذي طلب اليه ان يرسمه اميرًا فارساً ، وهو يكفل انقاذه ، وكما رفض ان يصير ملكاً على مصر وسورية ، لو تحوّل عن دينه . . . رفض كل شيء عرض عليه بإباء ، وعزة نفس !

الخلوص

واراد المسلمون بعد ذلك قتل الاسرى ، ولكنهم عدلوا . وعقدوا مع الملك لويس معاهدةً جديدة . فسلمهم دمياط ، ودفع الفدية النقدية ايضاً . وهنا لا يسعني إلّا ان اذكر عفة الملك القديس ، ونزاهته مع الاعداء ، كما مع الاصدقاء ، فكان اذا وعد ، فوعد نزيه حر شريف . واتفق انهُ حين الدفع ، تمكن السيد فيليب دي نيمور (Messire Philippe de Nemours) ، من غشّ الامراء بعشرة آلاف من الدنانير . ثم تقدّم الى الملك ، وخبره . فغضب هذا غضباً شديداً . وطلب اليه ارجاع النقود ، قبل الابتعاد في النهر . فانه وعد بدفع المبلغ كله . فاجاب السيد فيليب انهُ يمزح . فقال الملك : « ان هذه المازحة لهي في غير محلها . واني آسرك بما لي عليك من العهد ، وبما انك من رجالي ، ان تدفع العشرة آلاف دينار ، ان كنت لم تدفعها لهم حقيقة . » فاذعن السيد فيليب ودفع المال .

وبعد ان وفى الملك الفدية ، اقلع الى عكاء . وكان جوانفيل لا يزال مريضاً ، وكذلك رجاله . حتى ان عدد الموتى بلغ في يوم واحد نحو العشرين .

ثم زُيّن للملك لويس الرجوع الى فرنسة ، فاشار عليه كل الاسياد بذلك عدا جوانفيل الذي عارضهم . فهاج النبلاء ضدّه وماجوا . ولكن الملك طلب مهلة ثمانية ايام ، ليبحث عن الاوفق لهم . وبعد انقضائها جمعهم واعلمهم برأيه وعزمه على البقاء في الاراضي المقدسة ، حيث وجد انه بذهابه ، سيفقد

الصليبية بملكة القدس الشريف ، وايثاره البقاء لصيانتها ، ومساعدة النصارى هناك . ومنذ ذاك الوقت غدا جوانفيل ، اكبر صديق للقديس لويس واعز رفيق.

***

شيخ الجبل

وقد رمّم الملك كل الحصون ، حينذاك ، وزاد في تحصينها. واوفدت اليه الوفود من جميع الاقطار ، من فردريك الثاني ، وملك مصر ، وملك دمشق ، وشيخ الجبل . وهذا الاخير هو من يهمنا اليوم ، فانه رئيس تلك الطغمة التي كانت في اطراف الجبال المعروفة الآن بجبال النصيرية او العلويين. والتي اسسها حسن بن الصباح في القرن الحادي عشر ، وجعل لها مراتب وانظمة خفية . وجعلت همها الاوحد قتل من يعاكسها ، او لا يوافق غاياتها . وكم من امير خطير ، او حاكم كبير ، سقط تحت طعنات خناجر رسلها التعساء ؟ ارسل شيخ الجبل رسله الى الملك لويس يعرض عليه الولاء والصداقة . ولعلّ نفسه كانت تحدّثه بقتله ، ان لم يقبل موالاته ، وان يبعث اليه رسله القتلة كجاري عادته. وانهُ يهمنا طبعاً ان نطلع عليها ، لما حوت من فائدة ولذة في تعرّف عادات هذه الطائفة المرعبة المخيفة . وجوانفيل يحدثنا عن جميع ما شاهده او سمعه فيقول :

« .. في اثناء وجود الملك في عكاء . قدم رسل شيخ الجبل ، والملك اوانئذٍ يحضر القداس. وحين انتهى ، امر باحضارهم اليه ، وقد اجلسهم الملك ، بشكل انهُ كان في المقدّم امير مرقد افخر اللباس ، ووراء هذا « ممتاز » بلباس حسن ايضاً يحمل بين يديه ثلاث سكاكين ، متداخلة في بعضها ، وهذه تُستعمل اذا ما رُفض طلب الامير ، فتقدم للملك كعلامة قتال . ثم يتلو هذا آخر يحمل قطعة قماش ، ملفوفة على ذراعه ، تُقدم للملك ايضاً ككفنٍ لهُ ، لو رفض عريضة شيخ الجبل. واذن الملك للامير بالكلام ، فقدم لهُ تقريراً ، وقال: « لقد بعثني سيدي لأسألك اذا كنت تعرفه ؟ » فاجاب الملك انهُ لا يعرفهُ قط لانهُ لم يره ، وانما سمع عنهُ . فقال الامير : « انهُ ليدهشني جداً انك سمعت

بولاي ، ولم تراسله بالهدايا ، لتوثيق اواصر الصداقة ، كما يفعل امبراطور المانية ، وملك المجر ، وسلطان بابل (مصر) ، وكما يفعل سواهم ، كل عام. فانه لا يخفى عليهم ان حياتهم تتوقف على سرور مولاي. فاذا لم يسرك هذا ، فاعفه من الجزية ، التي يدفعها الى فرسان الهيكل والمستشفيات (الاسبتارية)[1] ، وهو يقنع منك بذلك » وكان شيخ الجبل يدفع الجزية للهيكليين وفرسان المستشفيات. لان هؤلاء لم يكونوا ليخافوا عمّال شيخ الجبل . وهذا يعلم ان لا فائدة تجنى من قتل رؤسائهم ، فانه اذا قتل واحداً ، يخلفه آخر . فهو لا يطوّح بالحشّاشين في حوادث لا تعود عليه بفائدة.

« فقال الملك للامير ان يرجع بعد الظهر ، ولمّا اتى وجد الملك بين رئيسي فرسان الهيكل والمستشفيات . وطلب منهُ هذا ، ان يُعيد ما قاله صباحاً ، فأبى ... وفي ثاني يوم قابل الأمير الرئيسين في مركزهما ، فلاماه ، على تعرّض سيده الوقح للملك ، بمثل هذا الكلام القاسي . ثم قالا لهُ : « اننا نأمرك بالرجوع الى مولاك ، وبان تعود بعد خمسة عشر يوماً ، حاملاً رسائل وهدايا. لحصول رضى الملك عليكم.»

« وبالفعل ، عادا يحملان قميص شيخ الجبل ، علامةً منهُ انهُ يريد ان يصادق ملك فرنسة ، اكثر من اي ملك آخر ، كما ان القميص هو اللباس الذي يتلو الجسد . وارسل اليه خاتمه المصوغ من الذهب ، والمنقوش عليه اسمه ، اشارةً انهُ بذلك « يتزوّج » (اي يتحد) الملك ، وبذلك يصيران واحداً . وارسل جواهر ايضاً ، كان بينها فيل من البلّور جيد الصنع ، وزرافة واصناف فواكه مختلفة ، كلها من البلّور ، والعاب للطاولة ، وشطرنج ، واشياء اخرى ، وكلها كانت مزيّنة بزهور العنبر ، موصولة بها بنقوش جميلة من الذهب الرفيع . وما ان فتح الرسل العلب عنها ، حتى خيل ان الغرفة كلها تعطرت ، لما انتشر من الروائح الطيبة.»

ثم ان الملك ارسل رسلاً الى شيخ الجبل ، يحملون هدايا « ومعهم الاخ ايف لُبريتون ، الذي يجيد العربية . وهذا علم ان شيخ الجبل ، لا يؤمن

(١) Chevaliers du Temple et de l'Hôpital

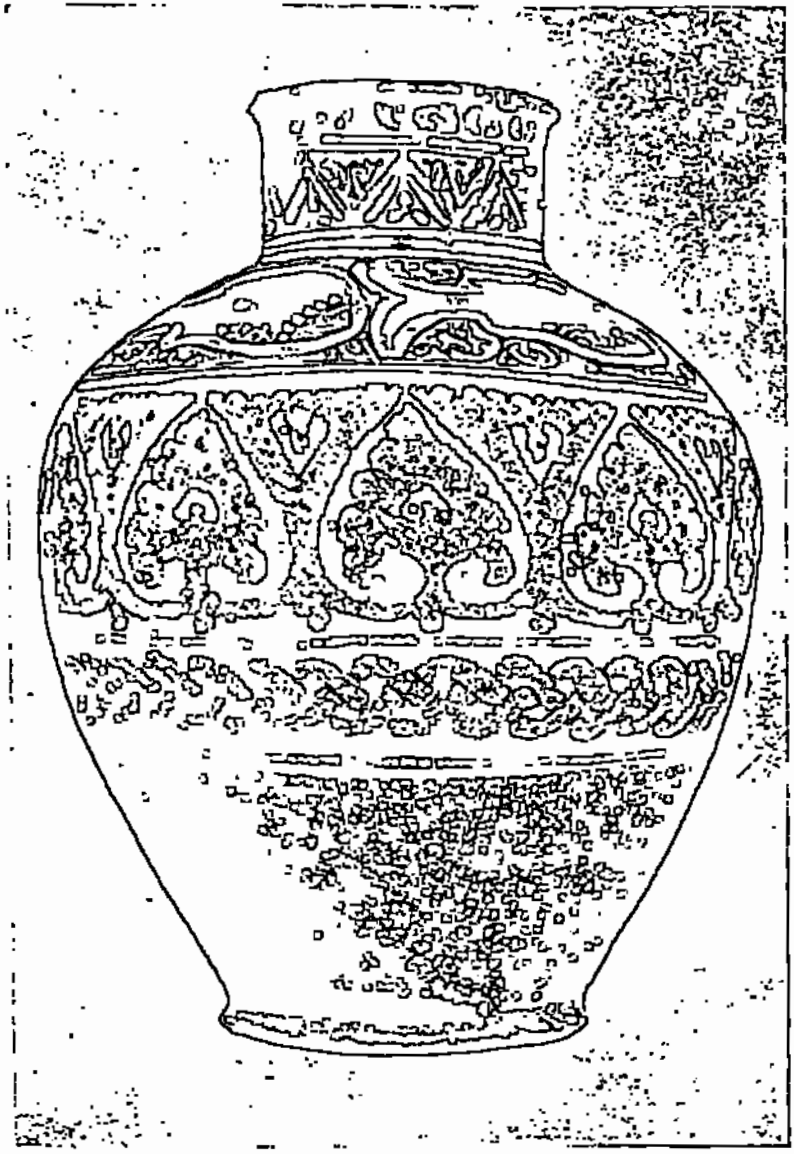

اناء من القاشاني بزخرف لمّاع من القرن الفاطمي في القاهرة (القرن الثاني عشر)

عن مجموعة الدكتور فوكه القديمة (Dr Fouquet)

كوب من الفاشاني بزخرف لأحد من الفن الفارسي في الري (القرن ١٠ أو ١١)
(متحف اللوفر)

كوب من الفاشاني بزخرف متعدد الالوان من الفن الفارسي في الري (القرن ١٣)
(عن مجموعة انجل غرو القديمة Angel - Hirds)

صحن من الفاشاني من الفن الدمشقي
(القرن السادس عشر)
(عن مجموعة ريمون كشلين Koechlin)

صحن آخر من الفاشاني الدمشقي
(القرن السادس عشر)
(متحف اللوفر)

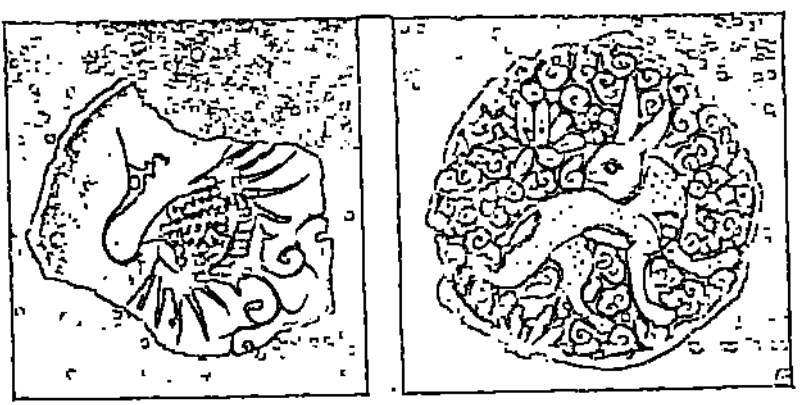

قطعتان من كوبين وجدتا في الفسطاط (بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر)
(عن ريمون كشلين)

بمحمد بل يتبع علياً « عم محمد ! » وان الاخير حين تولى الشعب ، طرد عمه وابعده ، ولما رأى علي هذا جمع اليه كلما قدر عليه من الناس ، وعلّمهم غير ما يعلّمه محمد (كذا!) . واليوم هؤلاء يقولون ، عن اتباع محمد زنادقة ، وكذلك يقول الذين يؤمنون بمحمد عنهم (كذا!) .

« ومن احدى شرائع علي ، ان المرء الذي يموت في سبيل امر سيده ، فروحه تتقمص في جسد آخر اشدّ حرية من الاول . ولذا فالحشّاشون يقدمون على الموت ، حين يصدر مولاهم الامر اليهم . . .

« وقد وجد الاخ ايف على مخدّة سرير شيخ الجبل كتاباً ، يتضمن جملة من كلمات السيد المسيح حين كان على الارض وجهها للقديس بطرس ، فقال لشيخ الجبل : « آه يا مولاي ، بالله عليك ، اكثر من قراءة هذا الكتاب ، فهو يتضمن كلمات مفيدة جداً » فاجابه شيخ الجبل انه يفعل ذلك ، قائلاً : « اني اعتبر كثيراً سيدي القديس بطرس ، لانه عند ابتداء العالم ، حين قتل قابين هابيل ، انتقلت روحه الى جسد نوح ، ولما مات هذا ، انتقلت الى جسد ابراهيم ، ولما مات هذا ايضاً ، انتهت بان سكنت جسد القديس بطرس »

« وحين يركب شيخ الجبل ، يتقدمه منادٍ يحمل فأساً ، بسنان طويل ، مغطّى بالفضة ، وفي حزامه عدد من الخناجر ، وهو ينادي : « ابتعدوا عمن يحمل حياة الملوك بين يديه »

هذا ما خطّه لنا جوانفيل عن شيخ الجبل الذي كان يهادي الملوك والامراء وكبار الحكام ، ويعمل على قتل من لا يرضى بمعاهدته .

* * *

ويحدثنا جوانفيل ايضاً عن التتار ، وقذارتهم والرائحة المنتنة ، الناتجة عن اللحم المقدّد الذي يحملونه في اخراج على متون الخيل . ثم يتطرقنا بما فعله الملك من تأمين الطرق ، وتحصين البلاد ، وحوادث طريفة مفيدة ، الى ان يحدثنا كيف تلقى الملك نعي الملكة والدته . فقد حزن حزناً شديداً ، ومنع الكل من الدخول عليه مدة يومين كاملين . قال جوانفيل :

« . . وبعد هذا ارسل اليّ خادم غرفته ، وما ان دخلت اليه ، ورآني ،

وكان وحده ، حتى بسط نحوي ذراعيه قائلاً : « اواه ايها الوزير ، لقد فقدت والدتي ! » فاجبته : « مولاي انني لا استغرب ذلك ، حيث انهُ يجب ان تموت ولكن الاستغراب يتملكني حين اراك تحزن هـذا الحزن الشديد ، وانت رجـل حكيم . وانت تعلم ان الحكيم يقول ان ما للمرء من حزن فليحفظه في قلبه ولا يظهره على محيّاه . »

« وبعدئذٍ اتى الملك كثيراً من المحامد هناك ، وبعث رسلاً الى فرنسة ، وزوّدهم برسائل الى الكنائس ، كي يُصلّى لاجل روح الملكة المتوفاة »

وفي سنة ١٢٥٤م ، عزم الملك على الرجوع الى فرنسة ، بعد ان شكره البارونات ، حكّام صيدا ، وصور ، وقيصرية ، ويافا ، وعكاء ، على تحصين البلاد . وانـه لم يبقَ لبقائـه في فلسطين اي ضرورة . وفي نيسان ١٢٥٤م ركب البحر .

* * *

هذا ملخص مذكرات جوانفيل الخالدة . وهذا مجمل صفحة من الصليبية ، التي لعبت اكبر دور في تاريخ بلادنا العزيزة ، وكان لها تأثير يُذكر ، لا تزال آثاره الى اليوم . وهـذه الصفحة المجهولة من اكثر ابناء سورية ولبنان جديرة بالـدرس ، والبحث . فجدّوا عنايتنا بها ، ولو قليلاً ، اذ انه من العار ان لا يعرف المرء ما مر ببلاده من الاطوار التاريخية العظيمة .

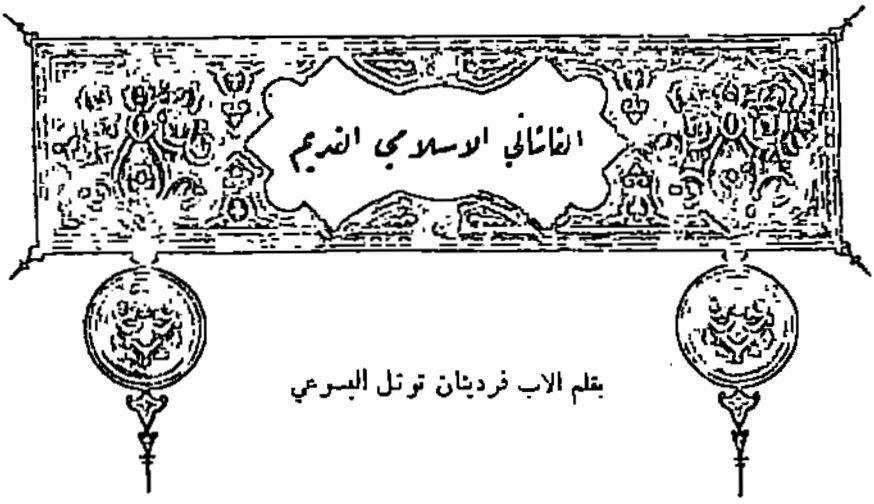

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

قال ياقوت : « قاشان بالشين المعجمة وآخره نون مدينة قرب اصبهان منها تجلب الفضائر القاشاني .» راني اتخذت من ثمّ كلمة قاشاني تعريباً للفظة سيراميك (*Céramique*) ومعناها ، في عرف الافرنج ، الفنّ المختصّ بصنع الخزف او الآجرّ او الفخّار بطرائق علمية ، وهو يشمل منتوجات الصناعة في هذا الصنف من الدارسيني والمينا وغيرها . ولم اجد في ما كتب من حديث[1] وقديم في وصف الزخارف البنائية ومنشآتها لفظاً اصطلح عليه العرب للتعبير عن معنى ذلك الفن الجميل ، وقد تعاطوه على مدى الاجيال ، ونبغوا فيه حتى باروا بحذاقتهم اعظم الصنّاع في هذا الفن من سائر الشعوب . قال غاستون ميجون[2] :

« ما من درس يستنوي العلماء استنواء سيراميك الشعوب الاسلامية لطلّاب الزخارف الجميلة المتنوّعة . فانها لآيات تشهد لاصحابها بالمهارة وبسلامة الذوق في صنع القاشاني ، وتحسين المينا ، وتنسيق الالوان . ممّا يدلّ على انهم وقفوا على اسرار العظمة في فنّ التوشية ، وفي تصوير الانسان والحيوان والنبات ، وغير ذلك من اشكال هندسية وخطّية ، ونسجوا لها من الجمال حلةً لم يسبقهم اليها فنّ من الفنون .»

واليك ، على صفحات المشرق ، صوراً لبعض المصنوعات القاشانية اخذناها من كتاب ميجون المذكور ومن كتاب آخر ظهر حديثاً لكشلين . وهي مختلفة

(١) راجع عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، مصر ١٩٢٧ ، (ص : ٦٧ وما بعدها)

(٢) G. Migeon : *Les Arts musulmans*

المصادر زماناً ومكاناً[1] منها من مصر ، ومنها من الشام او العجم . وان صاحب التاريخ المهتم باكتشاف فضل الشعوب بعضهم على بعض في ترقي الفنون والصناعة ، ينظر الى تلك الآيات الفنية ويسأل من اين هي ؟

ان رحلات علمية متفرقة افرنسية والمانية نقبت على آثار القاشاني في سوس ، وفي الريّ ، وفي سامرا ، وغيرها من الاماكن مثل بغداد ، ودمشق ، والفسطاط ، وفي الاناضول ، فعثرت على قطع عديدة جمعتها وارسلتها الى اصحاب المتاحف في اوربة . فجبروا رميمها ما استطاعوا ، وفحصوها ، واقرّوا في امرها انها عراقية او عجمية الاصل بالاغلب . واستنتجوا من ثمّ ان التواتر لدليل على ان الفضل في صناعة القاشاني الاسلامي القديم يعود اولاً للعراق او للعجم .

ولكن ظهر حديثاً مقال في مجلة « اريتوز »[2] المختصة لدرس العاديات من نقود ، وخواتم ، وغير ذلك من الفنون الاثرية ، اتى فيه صاحبه السيد «غالو» على تحليل مؤلف وضعه العلّامة بوتلر الاستاذ في اكسفرد وقد تناول فيه البحث في اصل القاشاني الاسلامي القديم ، واستنتج منهُ ان مسقط رأس القاشاني هو ارض الفراعنة ، وهي التي لقنت فنه الشعوب الذين احتلّوا ارضها من رومان وعرب . فلا يرى اذًا ان اصل القاشاني من بغداد ، ولا من الري ، ولا من الفسطاط . واليك بعض براهين على ذلك :

في العام ٧٦٢ بنى المنصور مدينة بغداد فصارت عاصمة الخلافة سحابة خمسة قرون . وشاد فيها قصرًا وفي وسطه قبة زرقاء . واستجلب لبناء القصر الصنّاع من فارس وبابل والشام والموصل . ومضت الايام ، واحتمل الاتراك العاصمة فاضطرّ المعتصم الى ان يهجر بغداد الى سامرا . وها ان اعمال التنقيب ، بعد نيف عن الف ومئة سنة ، قد كشفت في يومنا عن قطع من القاشاني في غاية ما انتهى الفن اليه من اتقان . هي صحون قبطية مزخرفة اشبه بالاواني المعدنية ، والواح بلاط مغشّاة بالمينا البيضاء الكثيفة اللمّاعة ، أفتكون بغدادية الاصل ؟ كلا ! لانها اتقن فنًا ، واجل صنعاً ، من ان يأتي بها من هم حديثو العهد بالصنعة . نعم لقد وجدت في بغداد ، إنما اتتها من الخارج وان ما يقال عن آثار بغداد

(١ R. Koechlin : *La Céramique ; Moraussé Artibuse, 1928, p. 136 sqq.* (٢

لصحيح ايضاً في ما ينسب الى سامرا. وليس اصل ذلك القاشاني من الريّ او من بلاد الفرس. وليس ما ينسبه ياقوت الى الريّ من امثال تلك الآثار الفنية دليلاً قاطعاً على انها نشأت في العجم. جاء في معجم البلدان:

« اما الريّ المشهورة فاني رأيتها وهي مدينة عجيبة الحسن مبنيـة بالأجر المنقّق المحكم الملمع بالزرقة مدهون كما تدهن الفضايد في فضاء من الارض... وكانت مدينة عظيمة خرب اكثرها. واتفق انني اجتزت في خرابها سنة ٦١٧ (١٢٢٠م.) وانا منهزم من التتر فرأيت حيطان خرابها قائماً ومنابرها باقية وتراويق الحيطان في حالها لقرب عهدها بالخراب »

ومعروف ان التتر دمّروا مدينة الري مرتين سنة ١١٨٦م. اما الشهيرة من الاواني الخزفية التي اكتشفوها فيها فمهدها يرقى الى ما بعد دمار المدينة، الى ١١٨٩، والى ١٢١٠، والى ١٢١٧، فليس من المعقول انها صُنعت فيهـا اذ يكون الاهلون في مثل تلك الايام العصيبة مشغولين عن الزخارف الكمالية بالحاجيات.

قال المؤلف: ولم تكن مدينة الفسطاط في مصر القديمة مسقط رأس القاشاني الاسلامي القديم، لان الفسطاط كانت حصناً رومانياً فاتخذه عمرو بن العاص مقاماً له. وليس في آثار الفسطاط دليل قاطع على وجود معامل للقاشاني الاسلامي القديم فيها، لان المرء يعثر في انقاضها على انواع من الفخار الشتى منها العربي ومنها الصيني. ولما كان وجود الصيني غير جازم بوجود معمل للفخار الصيني في الفسطاط، كذلك ليس من المؤكد ان وجود القاشاني العربي لدليل بات على ان منشأ القاشاني الاسلامي هو الفسطاط.

وفي الحالة التي اوصلنا اليها العلم قد يكون من المعقول انه كان في مصر في اواخر العصر البيزنطي، وفي اوائل الاسلام، صنّاع عريقو الخبرة في صنع القاشاني، متعلّمون استعمال المعادن في صنع الفخار منذ القدم. فيكون من ثم اصل القاشاني الاسلامي القديم من وادي النيل... هذا ما لم تحدث اكتشافات جديدة في قسطنطينية، او في انطاكية أمّ الشرق، او في الريّ، فتضطرنا الى النزول عند حكم جديد، وسبحان من تنزّه عن الضلال.

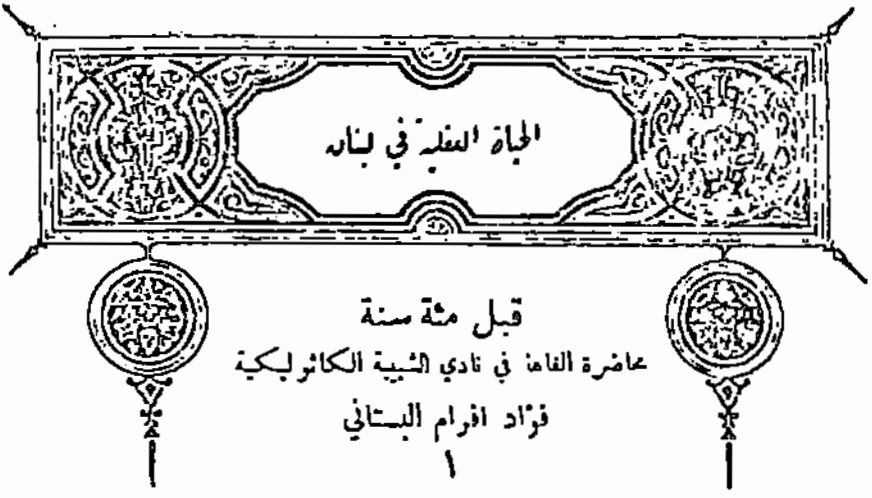

قبل مئة سنة

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية

فؤاد افرام البستاني

١

لكلّ أمة حياتان :

حياةٌ خارجية مادّية ، تُثيرها المطامع والاهواء ، ويقودها حبّ الفتح والاستيلاء الى المجازر والمعارك ، فيُبهر ابصارها لمعان الأسنّة ويريقُ السيوف ، وتُخيّم فوقها غمائم البارود وعصائب الكواسر ، ويُحيلُ احداءَ جلبتها الى اطراف الأفق قرعُ الطبول وقصفُ المدافع . ثم تعود ، بعد ان ملأت الفضاء ضجيجاً ، نشوى بخمرة الانتصار ، فتبني صروح عظمتها شاهقةً ، توطّدها على احقاف الجماجم ، وتشيدُها بدماء الأوردة .

وحياةٌ ثانية ، داخلية روحية ، تُحييها الرغبة في تهذيب النفس ، ويغذّيها الدرس واجهاد الفكر ، فتعملُ منفردةً ساكنة ، تحفظها الطمأنينة والسلام ، وتحفّها الهيبة والوقار . تبسط ايديها المحرّرة على خفايا الأدمغة فتنزع حُجبها ، وتمدّ اصابعها المرنة اللطيفة الى حنايا الضلوع فتكتشف كنوزها . ثم تعود ، ولم يشعر بها احد ، فتبني أكواخ تواضعها ضئيلةً حقيرة ، توطّدها على منتوجات العقول ، وتشيدها بعواطف القلوب .

وبعد حين يشعرُ ارباب الحياة الصخّابة بوجود الحياة الهادئة . فيهزأ بها البعض ، ويحتقرون أكواخها ، ويترفّعون حتى عن تقويضها . ويلهو بها البعض الآخر ، فيستخدم ابناءها في اساليب سروره وطربه ، يُذيبون ادمغتهم في سبيل تفكيهه ، ويمنّ عليهم بان يجعل أكواخهم في ظلّ صرحه الشامخ .

ولكن ما هو أن تهبّ عواصف الزمان ، وتثور اعاصير الدهر ، فتصدم تلك

القصور المتمرّدة ، وتدفع ريحها السموم صافرةً بين الجماجم ، حتى تُزلزَلَ تلك القباب ، وتقوّضَ تلك الاركان . والاكواخ باقية في تواضعها مطمئنة في سكونها .

ثم تمرّ القرون ، واذا بهرميدوس يدوّخ من البلاد ما لم يحلمْ بهِ الاسكندر الكبير ، واذا بشرجيل ينشر نفوذه على ولايات لم ينتشرْ عليها النسر الروماني ، واذا بالمتنبي يفتح ثغورًا لم يصل اليها سيف الدولة ، واذا بابيات كورنيل تدوّي في آفاقٍ لم تسمع قصف مدافع نابوليون ، واذا بشكسبير يحتلّ من المناطق ما لم يبلُغ اليه اسطولُ ملكة البحار .

واذا بالتاريخ ، ذاك الحاكم العادل ، يردّد ببرودته المعهودة :

مضى ذكرُ الملوك بكل عصر وذكرُ السوقة العلماء باقِ

هذه الحياة العقلية ، الهادئة الساكنة ، هي ما نودّ درسه في لبنان قبل مئة سنة ، اي في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

في عهدٍ كان اللبناني لا يهتمّ بسوى صقل بَطقانه ، وتنظيف بندقيته ، وتنضيد طبنجاته ، منتظرًا دعوة اميره ، كي يسير الى حيث لا يعلم ، فيحارب من لا يعرف . في ذاك العهد المضطرب ، الذي ملأه الأمير بشير جلبةً وضوضاء ، هل كان من وجود للحياة العقلية في لبنان ؟

اذا القيتم نظرة على قمم جبالنا ، من الشمال الى الجنوب ، ومن البحر الى البقاع ، ترونها مزدانةً ببنايات بسيطة الظاهر تعلوها قبب الأجراس مرتفعةً ، تبدو في النهار معالم لأبصار المسافرين فتدعوهم الى الاطمئنان والامل بالراحة ، وتقرع في المساء والصباح فتنبه السكان الى رفع الدعاء نحو المكان الأعلى .

في تلك البنايات التي شيدت بعرق الرهبان حيناً وبدمائهم احياناً ، حُفظ ، قرناً فقرناً ، مصباح الحياة العقلية . عبثت عليه عواصف الهمجية ، واكتنفه ضباب الجهل ، فارتجف طويلًا ، ولكنه لم ينطفئ . هو نورٌ ضئيل لا يُذكر اذا قسناه بانوار علومنا اليوم ، ولكنه كافٍ ليستانس بهِ مؤرخ الآداب ، ويؤمل انه سوف يسطع ، اذا وجد مجالًا للسطوع . وهكذا كان ! فان تلك الأديرة لم تخلُ عهدًا من حملة العلم ، ونشرة المعارف :

جبرائيل القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر .

الصهيوني ، والحصروني ، والرزّي في اواخر القرن السادس عشر .
الحاقلاني ، والباني ، والدويهي الكبير في القرن السابع عشر .
والسماعنة ، وفرحات في القرن الثامن عشر .

حملوا علوم الشرق الى بلاد الغرب ، وعادوا ، بانفسهم ، او بتلامذتهم ، او بآثارهم ، الى وطنهم ؛ فمهّدوا السبيل لنفحة الغرب الباعثة فينا روح النهضة في اوائل القرن الماضي .

هذا اهمّ ما يُذكَر ، عند الكلام عن سُبَّاق نهضتنا الحالية ؛ وهذا ما دفع خيرالله خيرالله في كتابه « *La Syrie* » الى الاقرار عالياً بفضل الاكليروس الماروني ، فقال ما تعريبه :

« نحن اليوم في طور انتقال تسود فيه الفوضى . ولكنّ المستقبل كفيلٌ بان يستخلص الأسباب من النتائج . عند ذلك تعرف سورية العصرية كلّ ما هي مدينةٌ به للبنان ، ويعرفُ لبنان كلَّ ما هو مدينٌ به للموارنة ، ويعرف الموارنة كلَّ ما هم مدينون به لاكليروسهم . »[1]

* * *

اما في اول القرن التاسع عشر ، فتبدو الحياة العقلية في ثلاثة مظاهر : المدارس ، والمطابع ، ومحافل الادباء .

وها نحن نجول في لبنان ، اذا شئتم ، في العقد الثالث من القرن الماضي ، فنتسلّق قُمةً ، ونزور مدارسه ، ونفتّش مطابعَه ، ونتعرّف الى مؤلفيه ؛ ثم ننزل ضيوفاً كراماً على امير لبنان في بيت الدين ، فنشهدُ حفلات من عنده من الشعراء والكتّاب . ونعود الى مقرنا ، بعد ان نسمع شيئاً من اناشيد الشعر العامي . ونُقنا الله في الذهاب والإياب :

اول ما يلفت نظرنا من معاقل العلم مدرسة عين ورقة الشهيرة ، التي انشأها البطريرك يوسف اسطفان على عهد اسقفيّته . وظلّت ديراً بسيطاً يُقيم فيه بعض الراهبات ، حتى انتبه البطريرك يوسف التيان ، احد تلامذة مدرسة الموارنة في رومية ، لحاجة البلاد الى معهد علمي كبير ، فأخرج الراهبات ،

(١) K. T. Khairallah : *La Syrie*, Paris, 1912 p. 18-19

وحوّل الدير ، سنة ١٧٨٩ ، الى مدرسة كبيرة على مثال مدرسة رومية . وها نحن نراها في زيارتنا ، آهلةً بالتلامذة ، مرتّبة الصفوف ، تدرّس فيها اللغات السريانية ، والايطالية ، واللاتينية ، والعربية بعلومها المختلفة من صرف ونحو وبيان وعروض ، مع الفصاحة والمنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، والحق القانوني ، والشريعة المدنية . ونرى بين هؤلاء التلامذة المتصدّين كثيراً ممن سوف يُصبحون ارباب اللغة بعد قليل ، فيحملون لواء النهضة عالياً ، ويملأون المكاتب بتآليفهم النفيسة ، كأحمد فارس الشدياق ، والكونت رشيد الدحداح ، والمعلّم بطرس البستاني.

وعليه يظهر فضل تلك المدرسة « التي يسوغ لنا ان نقول بحقّ ، مع احد خرّيجيها المعلم بطرس البستاني[1] ، إنها امّ المدارس الوطنية في هذه البلاد . »

ومن عين ورقة نسير الى باقي المدارس المارونية ، فنزور مدرسة كفرحي المنشأة سنة ١٨١٢ ، ومدرسة الرميّة المنشأة سنة ١٨١٨ ، ومدرسة صربا المنشأة سنة ١٨٢٨ ، وكثيراً غيرها من المدارس الأبرشية والاناطش المنتشرة في اهدن ، وحوقا ، وبقرقاشه ، وجبيل ، وعجلتون ، ووادي شحرور ، ودير القمر ، وزحله . ولو تأخرت زيارتنا قليلاً لأمكننا ان نزور مدرستين عامرتين هما مدرسة ريفون ، ومدرسة مار عبدا هرهريا ، وقد أُسستا سنة ١٨٣١ .

هذا ولم يحتكر الموارنة انشاء المدارس ، فاننا نرى للروم الكاثوليك مدرسة شهيرة انشأها في عين تراز سنة ١٨١١ ، البطريرك اغابيوس مطر ، وغايته تهذيب ابناء طائفته بالعلوم الاكليريكية.

وكان بطريرك السريان الكاثوليك ، مخائيل جروه ، قد وضع أساس مدرسة الشرفة وجمع بها مكتبة مهمة ، لا يزال المنقّبون يكتشفون بعض نفائسها حتى اليوم.

واذا زرنا دير يزمّار للأرمن الكاثوليك ، ورأينا ان لهم فيه مدرسةً تُذكر ، انشأها البطريرك غريغوريوس الأول ، نرجعُ ونحن واثقون بأنّا قد عرفنا اشهر مدارس لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر.

(١) المعلم بطرس البستاني : خطبة في آداب العرب ، (ص : ٣٦)

امّا المطابع فاقدم ما عُرف منها في لبنان مطبعة قزحيا القديمة التي دخلت بلادنا في اوائل القرن السابع عشر . وطُبع فيها كتاب المزامير ، على عمودين احدهما سرياني والثاني عربي بالحرف الكرشوني ، وذلك سنة ١٦١٠. ثم خربت تلك المطبعة ، فتضعضعت حروفها ، وخمدت حركتها نحو مائتي سنة. الى ان اهتم الاخ سيرافيم حوقا فاستحضر من اوربة ادوات جديدة ، وبنى قبواً خاصاً في الدير المذكور ، رتّب فيه جميع الآلات ، وطبع اول كتاب فيها سنة ١٨٠٨. وقد بلغت مطبوعاتها حتى زيارتنا نحو الثمانية كتب كلها في الدينيات.

وهناك مطبعة ثانية تقدّمت زمن تجديد مطبعة قزحيا ، وهي مطبعة دير يوحنّا الصايغ في الشوير التي انشأها عبدالله زاخر في الثلث الاول من القرن الثامن عشر ، وحفر حروفها على مثال الحروف العربية في مطابع رومية ، وسبكها بيده ، وقد ساعده على ذلك انه كان يتعاطى في حداثته فنّ الصياغة ، كما ذكر الرحّالة الفرنسوي ڤولني (Volney). واصدر اول كتاب منها سنة ١٧٣٤ ، وهو كتاب ميزان الزمان للأب نيرنبرج اليسوعي. ولم تأتِ السنة ١٨٢٨ ، حتى كانت مطبوعاتها قد بلغت الاربعة والعشرين كتاباً كلها في الدينيات.

وقد كان امكننا زيارة مطبعة عربية في بيروت ، وهي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس التي أنشئت سنة ١٧٥١ ، لو لم تكن قد أهمل امرها فظلّت نحو المئة سنة لا تطبع شيئاً.

* * *

كان يلتئم حول هذه الدوائر الادبية من مطابع ومدارس ، او بالقرب منها في الاديرة او في زوايا الجوامع ، فريقٌ ممن راقت لهم حياة العلم والتعليم ، فخصّصوا القسم الاكبر من وقتهم للتبحّر ، وتدوين ما يعلق بأذكارهم من الحوادث ، والمذاكرة مع من يجتمع اليهم من الطلّاب والمريدين.

وهكذا فاننا نرى في لبنان بضعة عشر شخصاً من المشتغلين بالحياة العقلية تركوا لنا بعض آثار لها قيمة تُذكر ، لاسيما اذا ذكرنا ان مؤلفيها كتبوها في زمنٍ ساد الجهل فيه على معظم الاقطار العربية.

من هؤلاء المشتغلين بالعلم مؤرخون ثقة نحن مدينون لهم بما نعرفه عن

تاريخ بلادنا ، كالقس حنانيًا المنيّر من الرهبانية الحنّاوية الشويرية ، والمعلّم نقولا الترك . للأول تاريخان مشهوران : احدهما مدني اسمه « الدرّ المرصوف في حوادث الشوف » ذكر فيه ما حدث في لبنان من السنة ١٦٩٧ الى السنة ١٨٠٧ ، فغدا موردًا سائغًا استقى منهُ الامير حيدر في تاريخه المعروف ، والشيخ طنُّوس الشدياق في « اخبار اعيانه » . والآخر ديني ذكر فيه حوادث رهبانيته من نصف القرن الثامن عشر الى السنة ١٨٠٥ . وفي المكتبة الشرقية نسخة من التاريخين .

اما نقولا الترك فوُلد في دير القمر سنة ١٧٦٣ ، وخدم الامير بشير ، ناظمًا في مدحه ومدح اعوانه القصائد العديدة مما سنُشير اليه . وقد اهتمّ بالتاريخ ليس اللبناني فحسب ، بل العامّ ايضاً ، فترك فيه كتابين جليلين اولهما تاريخ نابوليون ، من وفاة لويس السادس عشر الى السنة ١٨٢١ ، وقد درس هذا الكتاب المستشرق ديغرانج (Desgranges) فطبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ وترجمه الى الفرنساوية ، ولا يزال النصف الثاني مخطوطاً . وثانيهما تاريخ الجزّار ، منهُ نسخة في المكتبة الشرقية . ويمتاز نقولا الترك بجملته السهلة الصحيحة ، القليلة التكلُّف . ويرى المرحوم الاب شيخو ان لنقولا المذكور تاريخين آخرين لم يذكر اسم مؤلفهما : الاول طبع في باريس سنة ١٨٠٧ بعنوان « مجموع حوادث الحرب الواقع بين الفرنسوية والنمساوية في اواخر سنة ١٨٠٥ الموافقة لها سنة ١٢٢٠ لتاريخ الهجرة . » والثاني لا يزال مخطوطاً منهُ نسخة في مكتبة باريس العمومية اسمه « نزهة الزمان في حوادث لبنان » ينتهي بحوادث سنة ١٧٩٠[1]

اضيفوا الى هؤلاء بعض المشتغلين بالعلوم والآداب من الفقهاء والاساتذة الذين كانوا يجمعون حولهم من طلّابهم حلقات ، يتذاكرون فيها ويتناظرون ، فيخلقون محافل ادبية صغيرة ، كالشيخ محمد الحوت الفقيه البيروتي الذي ترك كتاباً اسمه « اسنى المطالب في الحديث » ، والخوري ارسانيوس الفاخوري الذي صار في ما بعد قاضياً للنصارى ، وترك التآليف العديدة .

(لها بقية)

---

١) الاب شيخو : تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج ١ ، ص ٢٦ .

وقّع الكرسي الرسولي وايطاليـة مؤخرًا معاهدة أنهت على شكل حتي ذاك الخلاف الطويل الذي فرّقهما منذ نحو ستين سنة . فرأينا من المفيد ان نلخص تطوّرات تلك المشكلة الرومانية التي سيفتح حلّها عهدًا جديدًا في تاريخ البابوية وتاريخ العالم المسيحي قاطبةً .

اصل الخلاف

في ٢٠ ايلول سنة ١٨٧٠ ، دخلت الجيوش الايطالية رومية . وكان قداسة البابا اذ ذاك ، بيوس التاسع ، امر بانزال العلم البابوي حقنًا للدماء . ولكنه ، في الوقت نفسه ، سلّم سفراء الدول احتجاجاً عنيفاً ايده برسالته العامّة المؤرخة في اول تشرين الثاني من السنة نفسها . اما الحكومة الايطالية فظنّت انها تتوفّق الى حلّ الخلاف بشريعة اعلنتها في ١٣ ايار سنة ١٨٧١ ، وهي المعروفة « بشريعة الضمانات » . وكان من موادّها الاعتراف لقداسة البابا بجميع مظاهر السلطة الخارجية ، ومنحه تعويضاً سنويًا قدره ٣,٢٥٥,٠٠٠ فرنك . ولكنها كانت تُنكر عليه حقيقة الاستقلال السياسي . وتنزع من ملكيته حتى قصرَي الفاتيكان ولاتران فلا تقرّ لهُ الّا بالتمتع بهما فقط .

فرفض بيوس التاسع قبول هذه الشريعة الفاسدة مبدئيًا لصدورها عن القوّة الجبرية . وكذلك رفض المال ، وقرّر سجن نفسه في الفاتيكان ، وقطع كل علاقة مع السلطات الايطالية . وحذّر على الكاثوليك من الايطاليين الاشتراك

في انتخابات بلادهم سواء كان ذلك تصويتاً او ترشحاً. ثم اعلم الامراء والملوك الكاثوليكيين انهُ لا يمكنه الموافقة على زياراتهم لرومية ، ما دامت الحالة على ذلك الشكل.

من لاون الثالث عشر الى بندكتوس الخامس عشر

ولمَّا خلف لاون الثالث عشر بيوس التاسع على السدَّة البطرسية ، اعاد جميع الاحتجاجات المذكورة ، وتمسَّك بها مدَّة حبريته الطويلة البالغة ٢٥ سنة محفوفة بالجلال والوقار. على ان التاريخ يذكر بعض ميول للتقرّب من الفاتيكان في سنة ١٨٨٧ . ولكن هذه المخابرات التي بدأها السياسي المشهور كريسبي عثرت بالعقبات الكؤود التي كانت تقيمها المحافل الماسونية الايطالية. وفي تلك المناسبة ، قال كريسبي ، على ما يُروى ، كلمته الشهيرة : « ان من يحلّ المشكلة الرومانية يكون اعظم رجل في ايطالية. »

اما بيوس العاشر فتابع السياسة نفسها من حيث الاعتزال في الفاتيكان . ولكنه ، لما رأى ان الاحزاب الثورية في ايطالية تتقدَّم تقدّماً مقلقاً ، سمح للكاثوليك من الوطنيين ان يشتركوا في الانتخابات وفي ترشيح انفسهم ايضاً . على انهُ ظلَّ متمسكاً بباقي موادّ احتجاجات سلفيه . ومما يُذكر ، تأييداً لهذا القول ، انهُ لما زار المسيو لوبيه ، رئيس جمهورية فرنسة ، قصر الكويرنال سنة ١٩٠٤ ، اصدر قداسة البابا احتجاجاً شديداً كان لهُ اعظم صدى في اوربة.

واذ توفّي بيوس العاشر في ٢٠ آب سنة ١٩١٤ انتخب مجمع الكرادلة خلفاً له بنديكتوس الخامس عشر . وكانت اوربة ، اذ ذاك ، في اول حربها الطاحنة . على ان هذه الحرب عملت على تعجيل حلّ المشكلة الرومانية ، لانها اظهرت لجميع الانظار حالة البابا غير المحتملة ، وقد حُرم ابناؤه في العالم المسيحي من صلاتهم به على طريقة منظمة مستقلّة فاجتهدت الحكومة الايطالية على سدّ هذه الثلمة نوعاً ما . فقبل البابا عملها بالشكر ، ولكنه اظهر ما يوجد من الاجحاف وعدم النظام بأن يكون استقلال رئيس الكنيسة متعلقاً بعواطف رجال الحكم وظروف السياسة ، وهي متقلبة بين ليلة وضحاها.

ولم تنتهِ الحرب حتى اخذ بنديكتوس الخامس عشر بالعمل في سبيل تسهيل الاتفاق . فقرّر ، في رسالته العامة الصادرة في ٧ ايار ١٩٢٠ ، السماح للملوك الكثلكة بزيارة رومية . ولكنه قال انهُ لا يجوز تأويل هذا السماح بأن البابا يتنازل عن شيء من حقوقه . وتابع طالباً وضع حدّ لتلك الحالة البعيدة عن العدل ، الوخيمة العاقبة لسلامة الشعوب جميعها .»

وكان الثاتيكان لا يفتأ يشجّع كاثوليك ايطالية على الاشتراك في حياة بلادهم السياسية . فما عتّم هؤلاء ان ألّفوا في المجلس النيابي حزباً مهمًّا كان من اوليات موادّ برنامجه «احترام استقلال الحبر الاعظم» . وما زالوا يعملون بخطبهم وكتاباتهم حتى هيّأوا الرأي العام الايطالي للنظر الى حلّ المشكلة الرومانية ، نظرًا جديدًا . فاخذ رجالات السياسات يفكرون في ذاك الامر ، واقترح بعضهم اعطاء البابا من الارض ما يجعله مطلق الملكية والتصرّف «وما يلزم كي يمكنه القيام بسلطته كرئيس الكثلكة الاعلى .» ولم يكن موسوليني ، اذ ذاك ، الّا رئيس حزب الفاشيستية وهو لا يتجاوز الثلاثين ناشباً ، فخاض لاول مرة تلك المناقشة ، التي لم تؤدِّ الى ابعد من الاقتراحات ، لان الوقت لم يكن قد حان بعد . وكان من نصيب خليفة بنديكتوس الخامس عشر ان يشاهد فجره السعيد .

بيوس الحادي عشر

لم يكد يُنتخب في ٦ شباط ١٩٢٢ ، حتى قام باشارة رمزية كان لها معناها البعيد . وذلك انه منذ وفاة بيوس التاسع ، ترك الاحبار الاعظمون عادة الظهور على الشرفة الخارجية من كاتدرائية القديس بطرس ، وهي الشرفة التي تطلّ على الرحبة الواسعة . كل ذلك احتجاجاً ضمنيًّا على اجحاف ايطالية بحقّ البابوية . على ان بيوس الحادي عشر ترك تلك العادة وظهر ، حالًا بعد انتخابه ، على الشرفة الخارجية ؛ فبارك الجماهير الغفيرة المحتشدة في الرحبة الفسيحة ، بينما كانت الجيوش الايطالية تؤدي لهُ السلام العسكري .

فتنوقلت الاشاعات اذ ذاك بان تلك المظاهرة حلّت المشكلة الرومانية .

ولكنها كانت سابقة لأوانها ، ولم يتم البابا الجديد ان يبدّد تلك الاوهام ، مجدداً « جميع التحفظات اللازمة لصيانة حقوق الكرسي الرسولي التي لن تُمسّ والتي حلف بالدفاع عنها.» وبعد هذا التصريح الواضح ، الذي بدّد فيه كل تأويل فاسد لظهوره الاول على الشرفة الخارجية ، ظهر للمرّة الثانية على الشرفة نفسها بعد حفلة تتويجه ، وبارك المئة الف مؤمن المزدحمين في رحبة القديس بطرس.

وفي ٢٨ آذار التالي ، وصل الى رومية ، ملك بلجكة وملكتها مع ولي العهد . فكانوا اول من يزور البابا من ملوك الكثلكة بعد سنة ١٨٧٠ . ولم تمض اشهر حتى تبعتهما الاسرة المالكة في اسبانية.

وقد شاهد شهر تشرين الاول من سنة ١٩٢٢ ، تقدّم الجيش الفاشيستي واحتلاله رومية . فاستلم موسوليني زمام الامور مستعدّاً لتطبيق ما اتخذه من المقاصد المقرّرة بأن يعيد الى الكثلكة مركزها السامي في حياة ايطالية . ومن ذاك الحين ، اخذت الحكومة الايطالية ببذل الجهود فوق الجهود للتقرّب من الحبر الاعظم.

امّا البابا الجديد فنشر في ٢٣ كانون الاول سنة ١٩٢٢ ، رسالته العامة الاولى . وفيها يجدّد الاحتجاجات والمطالبات التي قام بها سلفاؤه باسم حقوق الكرسي الرسولي ومقامه السامي . ولكنه زاد في تلك الرسالة نداء شديداً أثّر في الرأي العام الايطالي حتى الأعماق . وهذا نصّه :

« ليس في الكرسي الرسولي ما يخيف ايطالية . فان الحبر الاعظم ، مهما تكن شخصيته ، يتخذ دائماً دستوراً لسلوكه كلمات النبي القائل : « افكاري متجهة نحو السلام لا نحو العذاب.» وان البابا يتابع دائماً عمله في توطيد السلام الحقيقي غير مبتعد في شيء عن العدالة ، حتى يمكنه تحقيق كلام الكتاب المقدّس : « لقد تعانق العدل والسلام ! » وان الله القادر على كل شيء ، الوافر الرحمة ، ان يشاء فيبدو ذاك النهار السعيد ، الكثير الخيرات لاعادة ملك السيد المسيح ، ولتحقيق السلام في ايطالية وفي العالم اجمع . ولكن على جميع ذوي الآراء الصائبة ان يوحّدوا جهودهم حتى لا تدقّ عبثاً تلك الساعة السعيدة

سياسة موسوليني

ولكن ست سنوات مرّت ، قبل ان تدقّ تلك الساعة السعيدة ، وقبل ان يُسمع ذاك النداء الابوي . على ان ايطالية لم تُحرم من رجل حازم ، هو بنيتو موسوليني ، يحفّه فريق من رجال السياسة ، قادرون جميعهم على سماع ذاك النداء المملوء بالالهامات الشريفة الصادرة من قلب الحبر العظيم . ولا شكّ في ان موسوليني اراد ان يجيب عن ذلك النداء من اول العهد الفاشيستي ، وينال بكل جدارة ، ذاك اللقب الفخم الظاهر في كلمة كريسپي . على ان المشكلة كانت وافرة الصعوبة ، متشعّبة العقبات حتى انه يظهر لنا ان الزعيم الفاشيستي ، على الرغم من مقدرته وجرأته ، خاف اولا ان ينظر اليها وجهاً لوجه ، ويعمل على حلّها مباشرةً . فبدأ بشهر الحرب على الماسونية ، وكانت في عرفه ، اعظم عقبة لتحقيق تلك الامنية الوطنية . وبعد ان سحقها ، وحطّم كل ما كانت تُحدثه من المعارضات في المجلس الايطالي ، اخذ يخلق جوّ موافق في السياسة لما كان في نيّته القيام به من المخابرات . فجعل يزيد تأثير الديانة مساحةً وعمقاً في جميع مظاهر الحياة الايطالية ، وذلك بأن حذف او حوّر كل ما كان معاكساً لاعمال الكنيسة في الشرائع السابقة .

ويخال لنا انه لم يخلُ من الظنّ ان البابوية ، بعد ان يكون اغدق عليها احتراماته المتعدّدة وعناياته الكثيرة ، قد تترك المطالبة بحقوقها الاصلية ، وهي ان تعترف الحكومة باستقلالها التام ، وتعطيها الضمانات للقيام بهذا الاستقلال . ودامت هذه السياسة الجذّابة ستّ سنوات لا تألو جهداً في تعديد الخدمات للكنيسة من كبيرة وصغيرة ، وغايتها ، في عقول سياسيي الفاشيست ، ان تقرّب الزمن الذي تتحقّق فيه البابوية كل ما تظهره الحكومة من الاخلاص والتفاني ، فتترك المطالبة بحقوقها .

وكان من اهمّ هذه التقرّبات اصلاح التشريعات الدينية التي قام بها الحزب الفاشيستي سنة ١٩٢٥ . وكان هذا الاصلاح موافقاً للكنيسة في نقاط عديدة . على ان نقصه المهمّ كان في انه صدر عن حكومة علمانية اتخذت لها الحقّ في

سنّ نظام للكنيسة دون ان تستشيرها . ولهذا فان قداسة البابا بيوس الحادي عشر ، في كتاب تامّ ارسله الى الكردينال غسباري بتاريخ ١٣ شباط ١٩٢٦ ، انكر على الحكومة الايطالية الحقّ في الانفراد ، دون الكرسي الرسولي ، بوضع نظام رسمي للكنيسة الكاثوليكية . وقال خاتماً : « ان كل تعاون يظل مستحيلاً ما دامت تلك الحالة المجحفة بحقّ الكرسي الرسولي وبحق الحبر الاعظم . » عند ذاك وُجد موسوليني وحزبه وجهاً لوجه أمام المشكلة الرومانية التي كانوا قد ارادوا حلّها ، على ما يظهر ، بطريقة غير مباشرة . وعرفوا انه من الضروري ان يحلّوها قبل كل شيء ، فيسهل عليهم البحث في غيرها .

فلم يتردّد موسوليني في القيام بهذا العمل الذي تابعه في سكوت تامّ وطمأنينة لا شيء يقلقهما ، بفضل ما سنه الفاشيست من النظام لصحافة بلادهم . وكان ذلك العمل يتقدّم رويداً رويداً . وكثيراً ما عاقتهُ الصعوبات فاوقفته زمناً ، او قامت بوجهه العقبات فارجعته الى الوراء ، وقطعت المخابرات مدة بين السلطتين . ولكن لم يبدُ من ذلك شيء في الخارج ، حيث كانت الحياة السياسية تسير على اتمّ ما يرام . وقد علمنا بواسطة « الاوسرفاتوري روماني » ان مندوبي الحبر الاعظم اجتمعوا الى مندوبي حكومة ايطالية ، اثنا عشر المخابرات اكثر من مائتي مرّة . وهذا العدد يكفي وحده للدلالة على تطوّرات القضية ، وقد ظنّوا مرّات عديدة انهم وصلوا الى حلّ موافق ، ولكن كان ظنهم سابقاً لاوانه ؛ وكذلك اعتقدوا ايضاً مرّات عديدة انهم سائرون الى فشل نهائي ، كما حصل عندما الغت السلطة الفاشيستية جمعيات الكشّافة الكاثوليكية . وقد شعر الرأي العام بعاطفة الفشل نفسها ، لمّا نشرت الجريدة الرسمية للحزب الفاشيستي انهُ ينكر قطعياً اعادة شيء من الارض للبابا ولو كان قدر اصبع .

على ان السلطتين كانتا مخلصتين في اعمالهما ، ثابتتين في جهودهما ، وانتقتين برغباتهما في الوصول . فوصلتا بعد ان مهّدتا الطريق بازالة العقبات الكثيرة . اما كيف امكنهما النجاح فهو ما سنتكلم عنهُ في مقالٍ آتٍ .

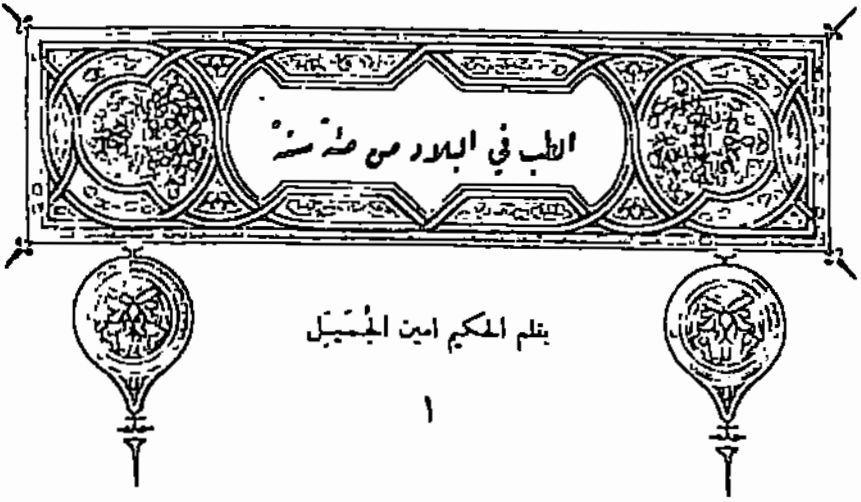

بقلم الحكيم امين الجميّل

١

القى حضرة النطاسي البارع الحكيم امين الجميّل في نادي الشبيبة الكاثوليكية محاضرة نفيسة عن « الطب في بلادنا من مئة سنة » جمعت بين الفوائد التاريخية والنصحية والنصائح الثمينة التي يُحكم الدكتور سرّ دمجها في جسم ابحاثه . فرأينا ان نتحف قراءنا الكرام بقسم منها ، فلا تفوت الفائدة من مشهر البعد عن التمتع بسماء المحاضر.

اهم الامراض وافتكها

الطاعون

كان منذ الأصل شرّ وباء . وقد أُحصيت وفياته ، في القرن الرابع عشر ، بأمر العلّامة البابا اكليمنضوس السادس ، فبلغت ٤٢,٨٣٦,٤٨٦ نسمة منها ٢٥ مليوناً في اوربة ، اي ربع سكانها حينذاك .

وقد عُرف القُطر المصري في كل الاجيال بمثل هذه الأوبئة لأسباب ووضعيّات سيأتي بيانُها : منها طاعون سنة ٥٤٢ وسنة ١٢٩٤ وقيل إن فيه خرج ٧٠٠ جثّة ، في يوم واحد ، من بابٍ واحدٍ بمدينة القاهرة (المقهورة من الوافدة) وأفادنا حضرة الحكيم عزيز بك حلمي ، مفتش قسم الأوبئة بمصر ، أن هذا البلاء زارهم ٢١ مرّة بين السنتين ١٧٨٣ و ١٨٤٨

وإذا تذكّرتم الحكمة : « اذا كان جارُك بخير أو ويل ، فأنت بخير او ويل » ، أدركتم كيف كان المرض يُهاجمنا من الغرب مارًّا بفلسطين الى ان أصبح عندنا وعندهم مُقيماً مستوطناً يراوح بين الذيوع والشدّة ، والانكماش

والحفّة، والاختفاء. والوثوب تبعاً للسنين والأمكنة. فصرنا كيفما قلّبنا تاريخنا نعثر على «الواغش»[1] في كل صفحة منهُ وهامش. هاكم الدويهي العظيم الذكر يكتب ما نصّهُ: «وفي سنة ١٦٦٢ حدث الطاعون في بلاد الشام فهلك بهِ خلقٌ كثير» ثم يُضيف أنه «في عام ١٦٦٨ بلغ عددُ الوفيات في حلب ١١٠ ألفاً وفي الشام ٧٥ الفاً وفي طرابلس والجبل عدد كبير جداً.»

وأورد صاحب تاريخ المقاطعة الكسروانية أنهُ في عام ١٧٥٨ جاء بالوباء من الاستانة الامير قاسم شهاب فسُمّي باسمهِ وذاع من صيدا الى اللاذقية؛ وأنهُ في عام ١٧٩٣ أمات، في قرية دلبتا، خمسة وتسعين شخصاً. غشا حلب ايضاً سنة ١٧٨٣ فذهب بالالوف، وفي دفاتر الآباء اللعازاريين انهُ مات به سنتئذٍ المرسَل (Merle) بعسر ٢٧ سنة بُعيدَ استلامه الدير من الاب (Signol) اليسوعيّ.

طفت هذه الوافدة في جيش بونابرت بالقُطر المصري، ومزّقته بيافا ١٧٩٩، على ما رسمته بفن رائع ريشة المصوّر غرو (Gros, *Les Pestiférés de Jaffa*) والصورة من تحف اللوفر بباريس. ولم يكن حظ عاصري عكا بأحسن، فضلاً عن صلابة العدو جاء طاعون بونابرت الخاصّ: انكلترة، فتعاون ثنة عليه مع الطاعون الدمّلي؛ حتى بلغت الوفيات الالفين: خمسين يومياً، بحسب تعديل الحكيم العسكري ديجنيت (Desgenettes) فألجئ بونابرت الى ان يعود الى مصر في ٢١ ايار سنة ١٧٩٩. وهنا مثلٌ بين الالوف يوضح ان للحالة الصحية يداً شلّت يد النزاة الى ان جاء باستور الفتّاح لما هو من الخير والوقاية! وفي وطننا لم يكن الوباء بأرفق ولا أرحم، فانه اهلك الالوف في مدائننا كحمص، وحماة، وزحلة، وبيروت، وكل مكان

رَوَى يوسف خطّار غانم في برنامجه المعروف أن الطاعون أمات هنا من أسرته، في يوم واحد بعام ١٧٩٩، ثلاثين شخصاً؛ فألقب بطاعون بيت غانم.

وقد اطّلعنا على «عدّية» تؤيّد ما ذكره المسيو غيز (Guise) المعاصر في كتابه من استمرار الطاعون في بيروت وجوارها طيلة سنة ١٨٢٦ برمّتها، وهي:

١) هذه الكلمة «واغش» التي لا تزال تسمُها، لم تتوفّق الى معرفة أصلها لا بالسريانية ولا بالتركية ولا بالعربية. فعسى ان يفيدنا عن ذلك احد قرّاء «المشرق» الكرام

إجا الطاعون من بيروت وحطّ في البادية
أخذ فرسان، أخذ عرسان أخذ شباب بيت زينيه

وفعلًا قد امحى اسمُ هذه العيلة الدرزيّة، الكبيرة حتى عامئذٍ.

وقد ظلّ ساريًا فاشيًا الى سنة ١٨٤٥. والحكيم سوكه الذي كتب على قبره بجونيه: «أحبّنا في حياته حتى اختار الرقاد فيما بيننا بعد مماته» صرّح لي غير مرّة ان الحكومة الفرنسية أوفدتهُ الينا عام ١٨٤٧ ليشرف على الحالة الصحية، ويُفيدها عن سير الطاعون لتتقيه على حدودها. فلم يُعاينه بتّة؛ وكان اذا سمع بوجوده، هرول الى ذلك المكان، فلا يرى الا مجدورين او مصابين بسوى الطاعون.

وثبتت العصمة والنزاهة بين قومنا الى ان ظهر الطاعون من جديد في اسكندرية باواخر نيسان سنة ١٨٩٩، وميّزه الحكيم ثالاسوپولو في احد البقالين. ومن ثمّ كان يظهر باصابات افرادية من حين الى آخر، وما غتم ان عاد الينا في معصرة الحلاوة، فالخان الصيفي، فاحدى المطاحن، ولكن بشكل كأنه غير وباني، لا يُشبه أصلًا الطاعون القديم، مع انه هو هو ولكن كان هذا التغيير لاسباب سننظر فيها بعد قليل.

الهواء الاصفر

اي الكوليرا، وباء هندي الاصل. واول ظهوره في ربوعنا كان سنة ١٨٢٢ فتخطّى حتى ازمير في ايار ١٨٢٣. وذلك مُثبت، على تأكيد وطنينا المرحوم قاسم عز الدين انه لم يطأ مكّة، اي الحجّاج، قبل السنة ١٨٣١. وقد ذهب بعض مؤرخينا الى ان وافدة ١٨١٧ هواء اصفر. على ان ذلك خطأ في التشخيص؛ فان ليتره (Littré) بين ان الهواء الاصفر لم يخرج من الهند قبل سنة ١٨٢٠.

وأفظع وافدات الكوليرا في سورية ولبنان ما مُنيا به سنة ١٨٤٥ و ١٨٦٥ و ١٨٧٥، فبلغت الوفيات في الشام وحمص وحماة وبيروت الألف في بعض الأيام، وكانت العامة تقول حينئذٍ: «ألف المرض»

واحسرتاه على تلك الضحايا التي قرأنا ذكرها باكتئاب في تذكارات الأمّ

جيلاس (Sœur Gélas) مَن تفانت مع رفيقاتها في خدمة المرضى والموبوئين. وقد ذكرت عن اختلاط الامراض بعضها ببعض كالتيفوس والجدري والكوليرا الى حدّ انهن شاهدنَ موبوئين مُهملين تماماً لرعب الاقارب او لانقراض من يعولهم. وذلك مـا يفسر لكم ما اظهره الباشا إذ ذاك والعموم ، واشترك به اخواننا المسلمون الكرام من تظاهرات الاجـلال لمن مات من راهبات المحبة — وما اجدرهنَّ بهذا الاسم ! — ضحية الوباء او العناء ، كالفتاة الراهبة سالس (Salze) والاخت دوفن (Dauphin) . ولهذا اجمعنا في لجنة تسمية الشوارع على تزيين احدها ، المارّ بوسط مؤسساتها الزاهرة ، بشارع الأم جيلاس.

اما ونحن في موقف الثناء على من استأهله في ذلك الزمان ، تخليداً لذكره نيلذ لي ان اسطر ما نوهتْ بـه من الاجلال والاعجاب الرئيسة جيلاس نفسها لمرسل خبرتهُ وخبرهُ الجميع رجلَ النيرة والهمة ، وهو الاب فيروفيش اليسوعي الاختصاصي بالفقراء وكبار الخطأة ومن نسميهم الاشقياء. وفي السنين المتأخرة ، ذَهم الهواء الاصفر غير مرة الشام وطرابلس وحمص والبقاع ، وارتقى حيناً الى اهدن ، ولكنه من ١٨٧٥ لم يغشُ بيروت لاسباب تطيلها لكم قريب

الجدري

داء عريقٌ في القدم والفتك ، وتذكرون أن الرازي اول من كتب فيه وانه اعمى ابا العلاء المعرّي. لا يدخل بلدةً او عيلة حتى يفتك بربع اهلها ، ما خلا من يشوّه ومن يُعمي. اعرف اسرة كبيرة متشتتة الى ذلك اليوم (ولا ريب انها غيرت رأيها بعد نكبتها ...) بعقيدة القضاء والقدر ؛ فلم تعتصم بالتطعيم ، فأمات الجدري ٩ من ١٢ من اعضائها . وسنوقفكم بعـد هنيهة على إيذاء الجدري في لبنان ، وما كان للتخلّص من شره « على عهد الامير »

البرداء

قد لُمّح اليها في الكتاب المقدس. والعربُ ، قبل رونالدروس بالف سنة ، فهموا عمل البعوض في شيوعها. وهاكم ، من عشرات ، مثلاً واحداً لاثبات ما تقدم: شكى قومٌ من اهل حصدة الى عمر بن الخطاب وباء ارضهم . فقال للحارث بن

كلدة ، فقال : « البلاد الوبيلة ذاتُ الادغال والبعوض وهو عُشّ البلاء ؛ ولكن يخرج اهلها الى ما يقاربها من الارض العذيّة[1] . فأمرهم بذلك . » ومن اقوالهم : « بُعض القوم وحُتوا ».

ومالي استشهد بالحجاز او العراق وعلى خطوتين من هنا « نهر الموت » ، و « عين افرُشْله » و « القبّارية » و « زوق الخراب » واسمعُ : « يا طالب العافية من البوشريّة ! » و « جاب له الضيق من عميق » وهلم جرّا . . .

والبُرَداء كانت على هذه السيادة ايضاً من مئة سنة . وخيفةَ الاطالة اقتصر على إيراد موجز بعض فقرات من رسالة كلوت بك الفرنسي ، من عَظَمَ بالأمس العالم كلّه في مؤتمر طبي فخم تأسيسَه مدرسة مصر . والفضل في وجود هذه الرسالة لاستاذنا المعلوف ، وفي نشرها لنقابتنا الهمام اسد رستم في مجلة الكلية . وهي مترجمة بهذه العبارة :

« هذه الرسالة من كلوت بك كشاف عموم الخدمة الصحية الى ضباط الصحة اولاد العرب بالاوردي المنصور ببرّ الشام في خصوص الحمى المتقطعة[2] .

« قد بلغنا ان برّ الشام حتى متقطعة مستولية هناك استيلاء وبائياً . وسببُ هذه الحمى القرب من مجاورة البطائح والبرك والمناقع والجداول التي فيها جري الماء قليل ، لان الابخرة الرديئة المتصاعدة (ومن هذا التصوُّر كلمة ملاريا : الهواء الرديء) تنتشر وتسبب عنها الحميّات وتستولي استيلاء وبائياً في كل سنة زمن الربيع او الخريف وتزول في الشتاء . » ثم اتى على اعراضها الرئيسية الثلاثة : اي البرد ، فالحمى ، فالعرق ، ثم مدّتها وانتهائها وإنذارها بما هو مثبت الان . ولم يغفل عن النوع الخبيث ولا عن المعالجة ، مشيراً كواق وشافر بالدواء العجيب الذي يخلّد فضل اليسوعيين ، عنيت الكينا ، واليسوعيون اتوا بها من بلاد البيرو في اواخر القرن السابع عشر . اما الرسالة فصادرة عن القاهرة في ١٥ رجب ١٢٤٩ هـ . (١٨٣٣م) (للبحث صلة)

---

١) العَذيّة : الارض البعيدة من الماء .

٢) ما نسميه ملاريا او fièvres intermittentes

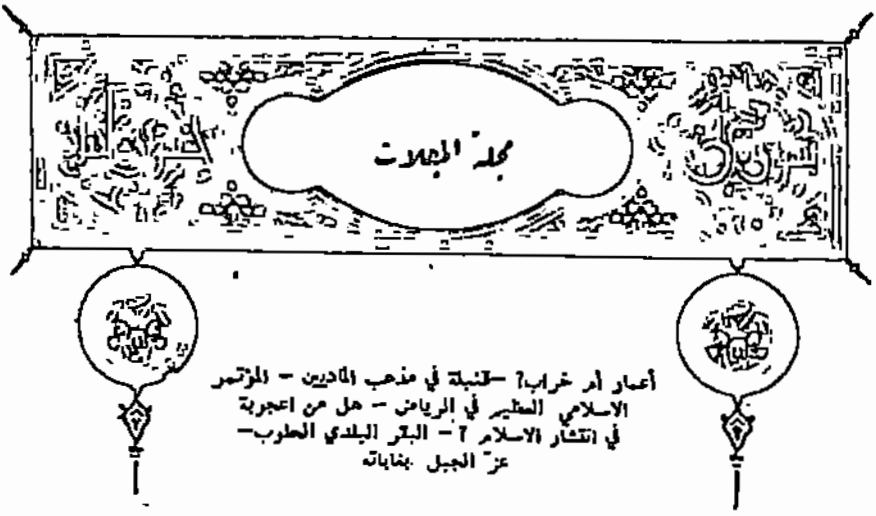

أعمار أم خراب؟ – كلية في مذهب المادين – المؤتمر
الاسلامي العظيم في الرياض – هل من اعجوبة
في انتشار الاسلام ؟ – البئر البلدي العطوب –
عزّ الجبل بغاباته

اعمار ام خراب ؟

للدكتور ضودج ، رئيس الكلية الاميركية ، مقال في مجلة « الكلية » (آذار ، ص١٦١) عن « قوة التهذيب للتعمير والتدمير » افتتحه بوصف الحضارة الرومانية اولاً ، ثم الحضارة البغدادية ؛ وكلاهما نشأتا بفضل التهذيب ثم غُلبتا على امرهما بافراطهما بالتمتع بالملاهي . قال ما ملخصه :

لكي نفقه اسباب سقوط رومية وبغداد ، دعونا ننظر في ماهية نتائج التهذيب في عصرنا : ١ً يغادر الفلاحون حقولهم ويأتون المدن الكبرى منجذبين اليها بما فيها من جمال وزخرف . ويهجرون ارض لبنان الى شوارع بيروت ٢ً ان الفئة المتهذبة منهم تأنف من التجارة والصناعة لقلة ارباحهما وتهبط المدن لانفاق المال في الملذات والملاهي . ٣ً لا يعودون يصلحون لصناعة او زراعة او للجندية او لعمل شاق ايّاً كان . ٤ً ينقلبون من ايمانهم البسيط الى الالحاد والزندقة والولوع بالماديات . ٥ً تحلّ الملاهي العمومية محل العيشة البيتية البسيطة ٦ً النساء المتهذبات يطالبن بالحرية ، انما هي حرية التهتك والفساد . ٧ً يتحقق في مثل هؤلاء ما قاله احد حكماء القرن الثالث عشر « ان غاية العمران هي الحضارة والترف ، وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات » . . .

فما ارهب الموقف وما اشدّ المسؤولية على مدارسنا ومعلمينا والمتعلمين فينا ! . ايكون تهذيبنا بركة لنا ام ضربة علينا وعلى البلاد ؟

ان التهذيب سلاح عظيم وقوته هائلة . وهو اما للخير واما للشر . فعلينا ان ننظر في امره وكيفية جعله ذريعة لتأييد الآداب السمومية ، ليكون بركة لا لعنة . يحوم الصبيان والبنات حول نظريات جديدة منشأها الغرب كما يحوم الفراش على السراج . « وفي الغالب لا يأتينا من الغرب الا الاشياء الرديئة ، فتنتشر في مدننا ويقبل عليها الشبان وغيرهم ايما اقبال . اما الاشياء الصالحة فتبقى عبر البحر مخافة عنا . فزجاجات الوسكي تُشاهد في كل مكان تقريباً واما جمال المنزل الانكليزي والاسرة الساكنة فيه ، فلا يرى . وكذلك نشاهد هنا المراسح الافرنسية والرقص الفرنساوي ولكن نفاسة الموسيقى الفرنساوية والفن الفرنساوي يبقيان في باريس . والسينما الاميركية تبهج انظار الفتى السوري وتهيج فيه كوامن العواطف ولكنها عاجزة عن ان تصور للمتفرجين شرف العمل في اميركا »

فالمطلوب من ابناء الزمان الحاضر ان يتعلموا ان مرامي التهذيب انما هي روحية

قنبلة في مذهب الماديين

هي شذرة او نكتة نشرتها مجلة المقتطف (شباط ، ص : ٢٣٨) في باب الاخبار العلمية . انما هي قنبلة دكت ركناً من اركان مذهب الماديين القائلين بالتطور ، الزاعمين ان الفكر والارادة هما من « مفرزات » المادة ولا حاجة في البحث عن اصلها الى التمويل على مبدأ روحي بسيط لان كل قوة من قوانا العقلية مركزها جزء من اجزاء الدماغ . فالدماغ في زعمهم هو مصدر الذكاء والفطنة كما ان المعدة وسائر الاعضاء هي اعضاء الهضم : ويتخذون من ذلك حجة على اثبات تسلسل الانسان من القرد لما بين دماغي الاثنين من التشابه . ويقولون ان درجة الذكاء الظاهر في الانسان تكون مناسبة لعظم حجم دماغه : فرمام « المقتطف » هذه القنبلة ونسفهم نسفاً ! قال :

« لو صحّ المذهب القائل ان المقدرة العقلية تتوقف على وزن الدماغ ، لكان حوت واحد يفوق اربعة او خمسة من النوابغ . فقد بحث احد العلماء الالمان في ذلك ووجد ان في دماغ حوت واحد ٢٤٧ اوقية من المادة السنجابية مع ان متوسط وزن الدماغ في الانسان قلما يزيد عن خمسين اوقية . »

المؤتمر الاسلامي العظيم في الرياض

تلخيصاً عن « الاصلاح » المكية الغراء (تشرين الثاني ١٩٢٨)

في ٢٢ جمادى الاولى ١٣٤٧ (٦ تشرين الثاني ١٩٢٨) عقد عبد العزيز بن السعود مؤتمراً في الرياض وكان قد شاع الخبر انهُ يرغب في التنازل عن الإمامة . فأتى الناس الرياض الوفاً « وكان كل وفد يقابل الامام يفصّ لهُ ما كان للخبر من وقع اليم وكانت دموع الكثيرين تسبق الستهم اذ ما كانوا يظنون ان سيسمعوا تحلي امامهم عنهم » . واختير من بين هذه الجموع العلماء والامراء والقادة فبلغ عددهم الثلثمائة واجتمعوا في رواق مكشوف للسماء في بيت كبير من قصر الامير تبلغ مساحته ١٣٨ متراً مربعاً . وفرش الطابق العلوي وبعض الاروقة التي حول الرواق الكبير لجلوس المجتمعين . واديرت القهوة على الحاضرين وخطب الملك ابن السعود مستشهداً بالآيات القرآنية وذكر الله واليوم الاخير ، وقال:

« جمعتكم هنا في هذا المكان لامر واحد ولا اجيز لاحد ان يتكلم هنا في غيره ، ذلك هو النظر في امر شخصي وحدي ... اريد منكم ان تنظروا فيمن يتولى امركم غيري وهؤلاء افراد العائلة فاختاروا واحداً منهم .. لم اقل هذا القول استخباراً او استمداحاً لانني ، ولله الحمد ، لا ارى لاحد منكم منة عليّ في مقامي ... وما يحملني على هذا القول الا امران: ١ً راحة ديني ودنياي. ٢ً اني اعوذ بالله ان اتولّى قوماً وهم لي كارهون...

اصوات : كلنا مصرّون على آرائنا ولا نريد بك بديلاً

وناشد ابن السعود الحضار بالّا يضغطوا عليه بتقدم وقال :

« اياكم وكتمان ما في صدوركم في امر من الامور التي تُسألون عنها ، فمن كتم ما في صدره فالله حسيبه يوم القيامة وعليه من الله اللعنة »

فاجاب النواب عن وفودهم وجاء في خلاصة اقوالهم :

« جزاك الله عنا خير الجزاء لقد علمتنا ما يجب علينا في ديننا ، فاعنتنا على هجرتنا وبنيت لنا المساجد وقدمت لنا العلماء واشركتنا في بيت المال ... واننا نسمع ونطيع ما دمت فينا كذلك ولو ضربت الظهر واخذت المال » .

قال صاحب الاصلاح :

«وان العربي الناظر لهذه الاجتماعات والسامع لتلك المحاورات لتأخذه اريحية

ويخامره سرور لهذا التبدل الذي يراه في التطوّر الفكري في قلب هذه الجزيرة العربية اذ يرى ان اولئك البداة الحفـاة ، الذين لم يكن الرجل منهم يدرك وينظر لأبعد من الوصول الى شهواته البدنية ، اخذت تبدو عليه علائم الاهتمام في امور دينية ، لها علاقة بالعمران والسياسة . وكان مَن يتكلم في الرياض افصح لساناً واقوى بياناً من المتكلمين في حواضر مصر وسورية . يرتجل بعضهم الاسجاع ، وقد يكون ملقيها ممن لم يحسن القراءة والكتابة .

« ولما انتهت البيعة امر بجفان الطعام وكانت مهيئة فجيء بها وجلس الناس حولها حلقاً حلقاً وجلس جلالة الملك في احدى الحلقات يأكل مع رجال المؤتمر من تلك الجفـان المترعات وهو يؤانسهم باحاديثه الى ان فرغوا من طعامهم وانصرفوا »

هل من اعجوبة في انتشار الاسلام ؟

مات محمد في العام ٦٣٢ ، واغار العرب على بلاد فلسطين والشام والعراق وفتحوها . وكانوا في الجاهلية يجاورن عن بلادهم في سبيل الارتزاق ثم يرجعون اليها . اما في القرن السابع ، وقد وحّد الاسلام كلمتهم ، ففتحوا البلاد واستوطنوها . ولا شك ان قوّادهم آنذاك اظهروا من الدهاء والمقدرة في الحكم والسياسة ما لم يكن دونه من بدّ للفوز الذي احرزوه . على ان هناك في بلاد الفتوح نفسها دواعي ساعدت الفاتحين كثيراً ، ولولاها لما رسخت قدم الاعراب في بلاد الشام والعراق : ومنها ترحيب سكان البلاد بالفاتحين رجاء ان ينالوا من يهودهم فرجاً في الازمة المشتدة عليهم . وقد جاء في « النجم » العدد ٢ (ص: ٥٥)

«آثر المسيحيون الكلدان الحكم العربي على الحكم الفارسي واظهروا ميلاً لجنود العرب الفاتحين مدفوعين بعاملين اولهما الجنسية العربية فان القبائل العربية النصرانية ومنها تغلب وتمر واياد والشهارجة ومعظمها ربيعة المنضوية الى الاروام تحـارب تحت رايتهم وكذلك عرب الحيرة المتناظرون من سوء معاملة الفرس واعتدائهم على مملكتهم الصغيرة انحازوا باجمعهم الى اخوانهم العرب الفـاتحين بدافع النزعة العربية ولذلك لما اقبلت جيوش الفتح الى الحيرة في قيادة خالد ابن الوليد سنة ٦٣٣ نزلوا في كنائسها واديرتها (الطبري ٤:١٨٦ ، وابن الاثير ٢ : ٢٥٧) . ثانيهما النفرة القديمـة الراسخة في القلوب من الدولة الفارسية لسبب الاضطهادات العنصرية والخصوصية كما سبق عنهُ الكلام مـا عدا القيود

الشديدة التي قيدوا بها الحرية الدينية والتضييق الذي كانوا يجرونه على رؤساء هذا الدين بحيث انهم منعوا مراراً عديدة اقامة الجاثاليق والمراسيم الدينية كل ذلك ولد هـذه النفرة . فلما ظهرت جيوش الفاتحين استبشر بهم الكلدان واملوا ان ينـالوا منهم تلك الحرية المنشودة . ومالوا اليهم لما رأوهم يعظمون المسيح ويحترمون الكتب المنزلة ويكرمون الرهبـان الى غير ذلك كما وردت الوصايا بحقهم بان يؤثروهم على المجوس الوثنيين الـذين لم يكن عندهم كتب منزلة ولا يعبدون اله الحق وهم يستوجبون القتل لكفرهم . فاطمأن المسيحيون الكلدان على حياتهم وأمنوا من الظلم الوثني والاضطهـادات والاعتداآت ولاحظوا من رجال هذه الدولة الجديدة التفاتاً ومعاملة حسنة فرأوا من مصلحتهم ان يناصروا الفاتحين ويبذلوا لهم ما في وسعهم من الخدمة مؤملين النجاة بهم من خصومهم عبدة الاوثان .»

البقر البلدي الحلوب

اليك ملخص مقال جاء في « الزراعة الحديثة » (شباط ١٩٣٩) :

عرفت غوطة دمشق بابقارها البلدية الشامية المتصفة بوفرة الالبان . كانت مزارع الغوطة تعج عجيجاً «باطايب هذا العرق يتوارثها السكان اباً عن جد ، الى ان حلت ببلادهم كوارث ذهبت بجنس هذا البقر الشهير ، او كادت . تلك الكوارث هي اولاً تهافت الصهيونيين من فلسطين على استجلاب اجود انواع البقر الى بلادهم فادخلوا فيها البقر الهولاندي اولاً ثم فضلوا عليه البقر الشامي وهو اشد احتمالاً لهواء فلسطين من الهولاندي واكثر منه مقاومة للامراض . ونشروا سماسرتهم بين رياض الغوطة وغياضها ونقبوا عن اجمل البقرات ودفعوا بالبقرة قيمة مغرية ، تراوحت بين ٧٠ و ١٢٠ جنيهاً ، فاشتروا اكثر ما في الغوطة من بقر حلوب وحرموا بلاد الشام كثرها الثمين

« وقد شاهدنا بقرة من هذه الابقار في صيف العام الماضي في مستعمرة من مستعمراتهم اعطت في سنة واحدة (٧٥٠٠) لتر من الحليب اي ما يقرب من ثلاثين قنطاراً . وعرضت علينا بقرة اخرى في احدى هذه المستعمرات

درت لوابنها في عام واحد (٥٥٠٠) لتر . ولا يزال سماسرتهم ووسطاؤهم يجوبون مزارع الغوطة فيمشون الى فلسطين بكل ما تقع انظارهم عليه من البقر الطيب الحلوب »

ومن الكوارث التي أثّرت بالبقر البلدي الثورة المشؤومة . ذاق فيها الفلاح الامرين ، فتشتت ابقاره وساءت صفاتها وتأذّت منتوجاتها . ثم انتشر الطاعون البقري فكافحته مصلحة البيطرة الكفاح السلبي فقط : بعثت برجالها لقتل كل بقرة مصابة او مشبوهة . . .

وانتبه بعض زوار الغوطة الى واجب تلافي الشر قبل فوات الفرصة فاستجلبوا من حمص وحماة بقرًا يستعيضون به عما فقدته بلادهم ولكن اختلاط البقر الغوطي بالحمصي والحموي مشين ، والاصل والفصل لها قيمتها بالمواشي .

فمن واجبنا التصريح بالحقيقة ولو كانت مرّة : ان الحكومة ، او بالاحرى مصلحة البيطرة ، ضربت تربية العرق البلدي في الغوطة ضربة مميتة ، باهمالها هذا الكنز الذي كاد ان يفقد من البلاد واذا اضطررنا يوماً الى استعادته من مزارع الصهيونيين ألجئنا الى دفع اضعاف ما دفعوه لنا من الدراهم .

عزّ الجبل بغاباته

اهدى الينا الاستاذ النائب اميل افندي يوسف ثابت صاحب « المجلة الوطنية » الاعداد الثلاثة الاولى من نشرته ، فلفت نظرنا فيها مقال عنوانه « لماذا لا تهتم الحكومة اللبنانية بالاحراج » ، جاء فيه : (شباط ، ص ٢٧) :

« تلك الاحراج التاريخية التي عاشت فيها الايام فسادًا ، فاتلفتها او كادت ! ان اهميتها لعظيمة في حياة الصناعة وحفظ المياه وتوليد القوى المحركة وتصفية الهواء وتزيين الجبال بالاشجار الصحية الجذابة للمصطافين . »

ثم سأل صاحب المقال الحكومة تشجيع اصحاب الاملاك على التحريج ، واستثناء الاحراج الجديدة من الرسوم لمدة عشرين سنة . فعسى ان يلقى نداؤه أذنًا واعية .

على شرف الدهر

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل السابع

اقتناع الفيروم

فاز الامير حسين بفوق ما كان يؤمل. فالامير بشير سجين في قلعة الجزّار، والشيخ بو غانم دفينٌ في لحده، ومعسكر بعقلين مضعضع النظام، متفرق الاعوان، وقد ضرب رجاله المذلا اسماعيل الضربة القاضية في سهول البقاع وسار متقدّماً نحو الشوف. فاوجس الامير جبجاه خوفاً من العاقبة واخذ يعقد مجالس الشورى مع الشيخ حسن جنبلاط ومشايخ العمادية. وبعد أخذ وردّ، قرّ رأيهم على ترك بعقلين مؤقتاً، والرجوع كلٌّ الى مكانه يترقبون الحوادث، ويتربصون الظروف، حتى اذا امكنتهم فرصة للوثوب وثبوا. ورأوا ايضاً ان يذهب الشيخ حسن الى عبيه، فينزل ضيفاً على الامير قعدان، ويجسّ عن قرب حالة الحزب الحاكم، والامير قعدان من مناصريه. فقام الشيخ منفّذاً هذه الخطة؛ ولكن الامير لم يقبله، فعاد خائباً الى وطنه واختبأ في جبل مرستي اما المشايخ العمادية ففرّوا لاجئين الى بلاد حوران.

واما الامير عبّاس اسعد، الذي علّل نفسه مدّة قصيرة بالإمارة، فلم يرَ امامه، وقد تلاشت امانيه، الّا الخضوع لتسليم الامير الحاكم، فقدم دير القمر وجلا، فطيّب الامير حسين قلبه وأمّنه.

وكان قد وصل المثلا اسماعيل بعسكره الى الشوف بعد ان طهّر البقاع من اولئك الشذّاذ ، فقوي قلب الامير حسين وخلا له الجوّ ، فمضى في طرق الاستبداد بنظام وبرودة حتى ارهق السكّان . وكانت كبرى ظلاماته انه فرض على اهل الشوف مائة الف غرش قصاصاً لما اتاه بعضهم من الحركات الثورية ؛ بعد ان ارسل الامير حيدر احمد الى جهات المختارة لقصاص ولدَي الشيخ قاسم جنبلاط في ارزاقهم ، ومواليهم . فكان شديد الوطأة عليها.

وكان لاحد افراد الجنبلاطيين ، الشيخ بشير نجم ، ثأر على نسيبه الشيخ حسن جنبلاط . فرأى الفرصة مناسبة للانتقام ، فلم يتراجع امام التزلّف للمولى الجائر ، والدخول في خدمته متجسّساً اخبار الحزب الجنبلاطي ، مفتشاً عن مكامن رجاله عامّة ، وغريمه خاصّة . ولكن الواتر كان ابعد من ان يقع في حبائل الموتور ، فانه لم يسمع بالامر حتى وُلّي ظهره بلاد الشوف ، وذهب يتنقّل في مناور حاصبيا ، ومعاقلها الطبيعية.

على ان للضغط تخوماً اذا جاوزها حصل الانفجار ، وللظلم حدوداً اذا بلغ اليها في شعب من الشعوب اهاب به روح الثورة ، فنادى بالعصيان مهما كلّفه من التضحيات ، حتى يقلب الظلم على الظالم ، ويردّ البغي على الباغي . وهذا ما بدا في لبنان على اثر ذاك الاستبداد . فان الامير لم يكن يقمع الفتنة في المناصف حتى تهيج في المراقيب ، ولم يكن يخمد الثورة في الشوف حتى تشبّ في المتن . وعبثاً كان يُرسل الامير قعدان وجرجس باز يتنقلان في البلاد ، فيعدان تارة ويتوعّدان أخرى ، ذاهبَين من بعقلين الى حمّانا ، موفدَين الرسل الى حوران وحاصبيا لمخابرة العمادية حيناً والشيخ حسن جنبلاط حيناً آخر.

* * *

ظلّ لبنان على هذه الحالة من الاضطراب حتى رجوع الجزّار من حج سنة ١٧٩٥ ، فلاقته الوفود الكثيرة من بلاد الشوف ، وبلاد جبيل ، وكل افرادها يشكون من ظلم الاميرَين وجرجس باز ، ويرجون من عطفه ان يُعيد اليهم مولاهم السابق ، الامير بشير.

وكان الجزّار قد ابتزّ كل ما يؤمّل ابتزازه من اموال ابناء الامير يوسف،

وطمع في ان الامير بشير يزيد على منافسيه في تقديم « الميري » ، فلم يرَ من بأس في قبول شكاوى اللبنانيين . وان من درس تاريخ الجزّار ، وعرف ما كان عليه من النهم والحرص ، وقلّة الاهتمام بالمواعيد والمواثيق ، وسرعة التقلّب في الاحكام ، وشدّة الملل من مساعديه اذا لم يبقَ لهم ما يشبعون به جشعه ، لا يستغرب هذا الانقلاب الذي يعادل انقلابه السابق مفاجأةً وسرعة. وبلمحة طرف ، تحوّل اصدقاء الامس الى مغضوبي اليوم ، وسجين دياس عكاً الى امير لبنان.

فرجع اللبنانيون على اعقابهم فرحين بقرب الخلاص. بينما كان الامير حسين، وقد علم بوعود الجزّار وادرك ما ستؤول اليه الحالة ، يجمع امواله ويترك دير القمر هاربـاً الى بلاد جبيل صحبة مدبّره برجس باز ، ومن بقي معه من الاعوان وفي مقدّمتهم الامير قعدان ، والامير سلمان سيد احمد ، وبعض المشايخ النكدية.

اما الجزّار فلمّا وصل الى عكا ، اسرع بطلب الامير بشير ، فأخرج مع رفاقه من دياسهم المظلم الى النور ، وهم حائرون بالغاية من هذا الطلب المستعجل . وما اشدّ ما كانت حيرة الامير اذ رأى الجزّار يخلع عليه خلعة الرضى ، ويرجع له ولرفاقه خيلهم واسلحتهم ، وهو يبشّ لهم ويظهر لمرآهم كل الارتياح.

ولم تكن هذه الفرصة لتفوت الامير ، فشاء الاستفادة منها ، والاستفادة عاجلاً . فتقدّم شاكراً المولى ، طالباً منهُ الولاية ، متعهداً له بدفع ثمانمائة الف غرش على ست عشرة سنة . واذ رأى الجزّار لا يزال متردّداً في القبول كأنه غير واثق بقبض ذاك المبلغ العظيم ، عمد الامير الى طريقة الرهن ، فوعد الجزّار بان يُرسل اليه عدّة رهائن منها ولداه الاثنان وزوجته . ثم وعد الامير حسن بارسال ولده ، ووعد الشيخ بشير بإرسال زوجته.

وبينما الجزّار يفكر في هذه المواعيد ، ويقابلها بما سينيله للامير ، والجميع منتظرون مـا سيصدر من اوامر المولى ، تقدّم غانم ، وبصوت جرحته نبرة الحزن ، والتجرّد ، والتضحية ، قال :

— وانا اقيم منذ اليوم رهينةً بين يدي مولانا « الباشا » يصنع بي ما شاء.

ثم التفت الى الامير بشير وأعوانه ، وقال مجيباً عما ظهر على وجوههم من الاستغراب :

— لم يبقَ لي من رغبة في العودة الى البلاد ، وقد فقدت أملي الوحيد في قصر الشربين !

فتقدَّم منهُ الامير ، وقال هامساً :

— وبدور ؟

فرفع غانم الى السماء عينين شاخصتَين ، جالت بين جفونهما عبرات حارَّة بلَّلت الاهداب وارشكت ان تسقط . فردَّها خجلًا ، وقال :

— يفعل الله ما يشاء !

ثم التفت الى الباشا ، وتابع :

— اصنع ما تريد ، مولاي ، فانا حاضر .

عند ذاك رضي الباشا بغانم رهينةً ، على ان يرسل الامير ما وعد بهِ من الرهائن بعد ثلاثة ايام . ثم خلع على مولى لبنان خلعة الولاية ، وزوَّده بالدعاء ، وامر بجيش يرافقه ، فيمهد امامه العقبات ويطهِّر طريقه من العصاة ، ويرتِّل اركان ولايته على أساس القوَّة والعدل .

فقبَّل الامير يد الجزَّار ، ورجا من حلمه وعطفه ان يرأف بغانم ، ويشمله دائمًا بعنايته ، وهو المولى الساهر على راحة الجميع ، ممَّن لا يحتاج الى توصية او تذكير .

ثم خرج في اصحابه مع غانم فودَّعوه . والتفت اليه الامير شاكرًا ، واعدًا اياه ان يذهب عند وصوله فيزور ضريح الشيخ الجليل ويكرِّم ذكراه حاملًا اليه احترام غانم . ثم يسير الى قصر بعذران فيسلِّم على الامير جهجاه ، وعلى امرأته ، وعلى بدور ، فيطمئنهم الى حالة غانم . وبعد ان اخذ من هذا الوعد الاكيد بمواصلة التحارير ، وبالاجتهاد في التخلُّص من الاستسلام للحزن والاسف ، وبالتفكر في المستقبل الذي سيكون حسنًا بعون الله ، قبَّله بحرارة ووعده ان يبعث اليه اسبوعًا فاسبوعًا بكل ما يجدّ من الاخبار . وسيكون الرسول

بينهما فرحات الامين المخلص.

اما هذا فلم يقوَ على وداع سيّده ، بل سار جانباً محدودب الظهر ، وقد علا نشيجه ، واحمرّت عيناه ، وترمرمت شفتاه ، فلم يقدر الّا على القول : « الى الاسبوع القادم ! »

***

لم يجاوز موكب الامير بشير حدود صيدا ، حتى ظهرت له طلائع حزبه من اللبنانيين المخلصين ، وقد ركبوا خيولهم الاصيلة ، واعتقلوا رماحهم اللدنة وارتدوا افخر ملابسهم ، وتسلّحوا بأجمل اسلحتهم ، وتجمهروا من كل صوب لاستقبال اميرهم المحبوب . شاهد متقدّمو الفرسان رجال الامير ، فتكصوا على اعقابهم ، يحملون الى الامير جهجاه ، قائد الجيش اللبناني ، تلك البشرى المنعشة.

وما هي دقائق حتى تشاهد الموكبان ، فخرقت الجوّ زراغيد الفرح ، وتلاعبت اسنة الرماح في الهواء ، ولمعت السيوف خاطفةً الابصار ، وعلا صهيل الخيول مجيبة نداء فرسانها . فكانت ساعة فرح وسرور قلّما عرفتها العساكر الّا بعد الانتصارات الباهرة . وقد أثّرت مظاهر هذا الاخلاص الصافي في فؤاد الامير ، فكان ينظر بحنوّ الى رجاله ، ويندفع نحوهم بكل جوارحه ، حتى انه ارتمى بين يدي الامير جهجاه يعانقه باسماً ، باكياً ، من شدّة الفرح والتأثر . وكان الامير جهجاه لا يملك عبراته . ولم يترك معانقة الامير ، حتى جالت عيناه بين حاشيته باحثتين سائلتين . ففهم الامير قصده وقال :

— انه لا يزال في عكا ! وقد فضّل البقاء هناك ، اذ لم يبقَ لهُ من امل في قصر الشربين !

ثم مسح عينيه بطرف كوفيته . فحنى الامير جهجاه رأسه ، ولم يتكلّم خوف ان يتفجر حزنه فينغّص على اميره فرح الوصول الى بلاده.

على ان الامير بشير لم يدعه في تلك الحالة ، فاخذ يسأله بالتفصيل عن وفاة الشيخ بو غانم ، وعمّا قاسوه جميعاً من ضروب العذاب . فكان الامير جهجاه يروي تلك المصائب ودموعه تهمي ، وصوته يتهدّج ، فتجاوبه زفرات

الحاضرين . وقد سكتت الزراغيد ، واركزت الرماح ، واغمدت السيوف ، واشترك الكل صامتين في سماع تلك الحوادث كانهم يحضرون جميعاً مأتم الشيخ بو غانم .

ثم عزّى الامير بشير الحاضرين راجياً من الله ان تكون تلك الرزايا خاتمة احزانهم . وكانت الخيل قد استراحت فأمر بالركوب . فساروا وقد عاد الفرح يجمل الفرسان ، الّا الاميرَين وفرحات ، فعادوا الى الاناشيد والاهازيج ، والمسايفة وضرب الجريد .

عند المساء وصل الموكب الى دير القمر ، فترجّل الامير وفرسانه في باحة السراي الفسيحة . وسار توّاً مع رجاله الى كنيسة سيّدة التلّة ، يشكرون لسيدة الديرتين عنايتها بهم ونعمها العديدة عليهم ، ويطلبون معونتها مجدّداً ، ولم تعتد ان ترفضها . وبعد ان تباركوا جميعاً ، دروزاً ونصارى ، بتقبيل هيكلها . ساروا يتمّمون واجباً مقدّساً ايضاً ، فصعدوا الى قصر الشربين مع بعض رهبان الانطوش . وهناك ، امام ذاك القبر الحقير بظاهره ، الكبير بما ضمّ بين صُفّاحه ، ركع الامير وحاشيته ، يقدّمون لشهيدهم واجب الاحترام والاكرام ، ويطلبون لغانم بركة جدّه ، ويصلّون عن نفس الميت بيتاً من المسبحة كان يتلوه الامير فيردّد عليه جميع الحاضرين بصوت ملؤه الايمان والتقوى .

* * *

وفي صباح اليوم الثاني دخل الامير دوائر سرايته يتفقّد شؤون الرعايا . وينظر فيما تجمّع لديه من الشكاوى ، والدعاوى ، والمعاريض . ويستقبل وفود المهنّئين ، ومقدّمي الخضوع من جميع الجهات .

وكان لا يزال عليه فرضٌ آخر وعد غانماً باتمامه ، وهو الذهاب الى بعذران ليحيّي الست سعدى ، وبدور ، ويطمئنهما الى حالة وحيدهما غانم . فعزم على القيام بذلك في القريب العاجل . وبعد ثلاثة أيام كان على الطريق مع مضيفه الامير جهجاه ، ومدبّره الشيخ سلّوم الدحداح ، وقد ترك في دير القمر اخاه الامير حسن ، والشيخ بشير جنبلاط .

(لها بقية)

شذرات

تصدير الاثمار السورية الى مصر

ما ان تلقي نظرة على اللائحة التالية حتى تعرف اهميتها ، وهي مأخوذة عن مجلة الاتحاد الاقتصادي السوري *Bulletin de l'Union économique de Syrie* (كانون الاول ١٩٢٨) :

﴿ الموز ﴾ بلغ الصادر منه ٥٤ بالمئة من وارداته الى مصر ، فنالت به سورية المكانة الاولى وغلبت اسبانية ذات الحظ الاوفر سابقاً في هذا الصنف. وبلغت قيمة الصادرات منه عام ١٩٢٦ ، ٨٤٤٢ جنيهاً ، اما عام ١٩٢٧ ، فبلغت ٩٤٠٧ جنيهات.

﴿ الليمون وفروعه ﴾ غلب به لبنان مؤخراً البلاد الايطالية ، وقد ارسل ، الى مصر عام ١٩٢٧ من البرتقال البلدي والبرتقال الملقب يوسف افندي او المالطي كمية زادت قيمتها عليها في السنين السابقة ببلغ ١٠٠١ جنيهاً.

﴿ المشمش ﴾ نالت به سورية المكانة الاولى . وكان الوارد منه الى مصر قد بلغ ٣٠ بالمئة عام ١٩٢٦ ، اما في العام ١٩٢٧ فقد وصل الى ٤٦ بالمئة ، وربح ٢٩٣٦ جنيهاً زيادةً على محصولاته السابقة.

﴿ الخرنب ﴾ قهرتنا اليونان ففازت بالاولية في تصديره وكان لنا السبق في ذلك.

على ان تصدير الاثمار الجافة الى اسواق مصر اخذ يتزايد تزايداً محسوساً ، وخاصةً المشمش والزبيب والجوز . وارتفعت قيمة واردات المشمش الى مصر : كانت ٤٠٢٨١ جنيهاً عام ١٩٢٦ ، فبلغت ٥٧٠٠٠ جنيه . اما الفستق فقد خفّ وزنه وانحطّت ارباحه . ويا ليت السوريين المصدرين الاثمار يزيدونها عناية بالتنقية واللفّ والتحميل ، فتروج اسواقها بلا محالة وتنمو وتزدهر كثيراً بفضل تلك العناية.

الدين في تركية اليوم وغداً

نشرنا في العدد الماضي (ص: ٢١٨) مقالاً عن مجلة العالم الاسلامي الاميركية وصفت فيه الحالة الدينية في تركية . وقد اطلعنا اليوم على مقال للسيد محمد بن يحيى الصقلي صاحب المكتبة الشرقية في الدار البيضاء (مراكش) بعث به من الاستانة الى جريدة السعادة في رباط ، فرأينا ان نقتطف منهُ ما يخص الموضوع ، قال ، وهو شاهد عيان :

« اما من جهة التدين فقد اديت الفريضة بمساجد عدة فلم ارَ من حاضري صلاة الجمعة بها الّا النزر اليسير . ومن العجب انني رأيت النساء يصلين مع الرجال وهنَّ سافرات الوجوه .

« واما الطرق فقد تلاشت وذهبت لحال سبيلها والزوايا والمزارات اغلقت غلقاً نهائياً . . .

« ولقد جمعتني الصدف ليلة كنت مدعواً بها عند احد الاكابر لتناول طعام العشاء مع ضابط من علية الضباط . فساق الحديث بيننا عن الاضرحة والمزارات التي منع فتحها ، فما كان منهُ الّا ان قال لي : حتى المساجد بعد سنة ستغلق ويمنع الدخول اليها لاجل الطهارة . فقلت لهُ : لاي سبب ؟ هل النهوض والتقدم يكون بغلق المساجد وجحود الدين ؟ واذا كان الامر كذلك فلاي شيء الدول العظام بكافة القارات الارضية مثل انكلترة وفرنسة واليابان واميريكة وهن على ما هن من غزارة العلم وضخامة الملك والتفوق في كل شيء بتباعدين العمل لم يفعلوا شيئاً من ذلك ؟ فالنهوض لهُ مقتضيات اخرى جوهرية والتقدم اهم شرط من شروطه حرية الاديان والمعتقدات . فلم يجد جواباً ولم ينبث ببنت شفة . »

هجرة الكلدان في انحاء مختلفة من العالم

بلاد ليهاناكا في شمال تناريف (مدغسكر) مشهورة بعدد تماسيحها التي تقلق راحة الاهلين بصورة مرعبة حتى اصبح كل من سكن تلك الارض ، ان من البشر وان من الحيوان ، عرضة كل ساعة لخطر الموت . وعليه فقد عقد

افراد كل جنس اتفاقاً يتحدون به على مقاومة العدوّ المشتركة . وهاك ما يفعله الكلاب لدفع هذا الشر :

اذا اراد كلب قطع نهر مأهول بهذه التماسيح لا يخاطر بنفسه وحده مطلقاً ، بل يذهب يدعو رفاقه ، فتأتي الى جانب النهر جماعة كبيرة فيسرّ التمساح الذي يراقب الحركة بهذه الغنيمة الباردة ، ويبدأ يشحذ انيابه سلفاً .

وفي الحال يبدأ الكلاب كلهم بعواء شديد على الشاطئ ، فيحتسون التمساح ، فيتقدّم فاغراً فاه ، بينما يكون الكلب الاول عبر النهر مسرعاً بكل طمأنينة من وراء ظهر العدوّ الجبّار . حينذاك تختبئ الكلاب الباقية ساكتة مظهرة انها تهرب ، فيبدأ الكلب الذي مرّ بالعواء نفسه من تلك الجهة حتى يعتقد التمساح ان كل الكلاب مرّت ، فيلوم نفسه ويرجع مخذولاً

اما الكلاب المختبئة فانها تغتنم هذه الفرصة وتلقي انفسها في النهر سريعاً ، حتى اذا اجتمعت على الشاطئ الآخر ، سارت وملء اشداقها الهزء بالتمساح . ولم يسمع قط ان احد التماسيح فطن الى هذه الحيلة . . .

هيا بنا نعيش في الارياف !

أجروا في بلاد تشكوسلوفاكية احصاءات ادّت نتائجها الى ما يلي : بين الفين من المتوهين المحجور عليهم في المارستانات لا يوجد الا ثلاثة من سكان الارياف . و ٣٫٥٠ بالالف من ذوي المشاريع الصناعية والتجارية الكبرى والمهن الصناعية والاشغال التجارية . اما رجال الدروس والمؤلفون وسائر الذين يتعاطون المهن الحرة فيبلغ عددهم الثانية من كل الف .

من صفات الصديق

قال ابو تمام في صديق :

من لي بإنسانٍ إذا أغضبتُهُ ... وجهلت كانَ الحلمُ ردَّ جوابهِ
واذا طربتُ إلى المُدام شربتُ من ... أخلاقهِ ، وسكرت من آدابه
وتراهُ يصغي للحديث بقلبهِ ... وبسمعهِ ؛ وكأنما هو راءٍ بهِ !

موت العصافير

هو عنوان لقطعة صغيرة رائعة من الادب الفرنسي الحديث ، نظمها الشاعر فرنسوا كوپيه وضمنها ما شاءت عاطفته من دقة الحسّ ، ولطيف التصور . فرأينا ان لا يحرم منها شعرنا العصري ، فنشرناها بأصلها الفرنسي واردفناها بترجمة عربية حرفية ، مقترحين على شعرائنا الكرام تمرين قريحتهم بنظمها ، واعدين بنشر افضل ما يصلنا من اشطارهم في اعدادنا المقبلة .

La Mort des oiseaux

Le soir, au coin du feu, j'ai pensé bien des fois
A la mort d'un oiseau, quelque part, dans les bois.
Pendant les tristes jours de l'hiver monotone,
Les pauvres nids déserts, les nids qu'on abandonne,
Se balancent au vent sous le ciel gris de fer.
Oh ! comme les oiseaux doivent mourir l'hiver !
Pourtant, lorsque viendra le temps des violettes,
Nous ne trouverons pas leurs délicats squelettes
Dans le gazon d'Avril, où nous irons courir.
Est-ce que les oiseaux se cachent pour mourir ?

وهذه ترجمتها العربية الحرفية بيتاً فبيتاً ، يستبين بها من يشكل عليه الاصل الفرنسي من شعرائنا الكرام :

كثيراً ما فكّرت ، عند المساء ، وانا الى جانب الموقد ،
بموت عصفور في بعض انحاء الغابات .
في الشتاء المملّ ، في ايامه المحزنة ،
تلك الأعشاش الحقيرة ، المقفرة ، المهجورة ،
تتقابل مع الريح ، تحت سماء كحلي الحديد اغبرارا .
آه ! ما اشدّ ما يكون موت العصافير في الشتاء !
بيد انها ، عندما يأتي زمن البنفسج ،
لا نعثر على هياكلها النحيفة ،
في كلأ نيسان حيثُ نسير راكضين .
فهل تختبئ العصافير لتموت ؟

مطبوعات شرقية جديدة

G. Ferrand: Introduction à l'astronomie nautique arabe. [*Bibliothèque des Géographes arabes, tome I*] *vol. in-8° de 272 pp.* 1928, *Prix* : 100 *f°. Paris, P. Geuthner.*

مقدمة لعلم الفلك واستخدامه في الملاحة عند العرب

ان مجلدات «مكتبة جغرافيّي العرب» المطبوعة في هولاندة كانت لا تزال غير مترجمة الى لغة اوربية ، فكانت معلوماتها النفيسة ، والحالة هذه ، لا تزال مجهولة من جغرافيي اوربة ، ومؤرّخيهـا ، ومستشرقيها ايضاً الذين يجهلون العربيـة . حتى رغب المستشرق غبريال فرّان ، المعروف بدروسه القيّمة في جغرافية الشرق ، في القيام بهذا المشروع الجليل فيترجم الى اللغـة الافرنسية جميـع مجلدات تلك المكتبة . وها هو اليوم ينشر هذه المقدمة الواسعة وقد قسمها الى قسمين : بحث في الاول عن استخدام العرب لعلم الفلك في الملاحة فاظهر سعة معارفهم في هذا الشأن ، ووصف آلاتهم المستعملة في الرحلات البحرية مزيناً دروسه برسوم عدّة . اما القسم الثاني فقد خصصه بترجمة حياة ابن ماجد الذي كان دليـلاً للرحالة الشهير ڤاسكو دي غاما ، في رحلته من شواطئ افريقية الى الهند ، واردفها بتحليل مؤلفات ابن ماجد في الملاحة وفيها تلميح (ص ١٨١) الى حيّة البحر التي كثيراً ما سمعنا عنها في السنين المتأخرة دون ان يبرهن وجودها بصورة جازمة.

ه . ل .

J. Mélia : Chez les Chrétiens d'Orient. *in-16, 1929. Prix : 12 f°. Paris, E. Fasquelle.*

عند مسيحيّي الشرق

كان المؤلف سابقاً في مركز من المفوضية العليا مكنه من معرفة الكثيرين من رجالات البلاد. فدوّن في مذكراته معلومات وتأثيرات مثلها اليوم بالطبع ، مستفيداً من حركة ادبية حاضرة تدور في فرنسة حول مسألة الارساليات الدينية

التعليمية في الشرق . وان شهادته في مسيحي الشرق ، وخصوصاً في المرسلين الى الشرق (وهذه الميزة لا تظهر في العنوان) لا تخلو من القيمة ولا من الجرأة. فقد لزمه كثير من التأثيرات العميقة القاطعة لتأييد معتقداته . وقد كان بوسعه ان يحتفظ بها ؛ ولكن لم يشأ الا اظهارها ، فلاثر بأي اسلوب فعل ذلك: لقد كتب كتابه كله ، من البدء حتى الختام ، على رسم المنفعة الوطنية . فاتخذ منها قياساً وحيداً قاس به جميع اعمال المرسلين من عازريين ، ودومنيكيين ، ويسوعيين ، وآباء بيض . ورأى ، في ما يخص اليسوعيين ، ان هذا القياس لا يكفي تماماً لقياس اعمالهم ، مظهراً من خلال اقواله انه لم يرهم الا من الخارج حتى ان لارومه (Larroumet) وباريس (Barrès) لم يوفرا له الا معونة ثانوية في ذلك ، فهو لا يجد ليحدد اعمالهم الا الكلمات والعبارات المعروفة من امثال « القوة » ، « والسيطرة » ، و « ادارة المديرين » . وهكذا فان الدافع السامي يفوته ، فلا يقع تحت حواسه الا مظاهر السياسة الارضية . وعليه فيمكن القول ان قراءة هذا الكتاب لا تحدث التأثير المطلوب حتى في جمهور الشعب الذين يكتب لهم المؤلف . فهم يرون فيه ان المرسلين وخصوصاً اليسوعيين (ولا ندري لماذا يفصل المؤلف بينهم وبين سائر المرسلين ؟ أولا يعلم ان للجميع مثلاً اعلى واحداً يسيرون نحوه في اعمالهم ؟) لا يمكن تحديدهم بالعبارات الرسمية التي تستعملها حكومة علمانية ، وانه مهما اغدق عليهم من النعوت الحسنة فلا يزال يبدو في تلك النعوت علامات الجبل والحذر . هذا اما من حيث التاريخ فان في الكتاب من الغلطات ما لا يُستهان به وما يجعله بعيداً عن الثقة المرغوب فيها في المصادر التاريخية

ج . ل .

S. Bialoblocki : Materialen zum islamischen und jüdischen Eherecht [*Arbeiten aus dem orientalischen Seminar der Univers. Giessen, Heft I*] *in-8° de 54 pp. Giessen, Alfred Töpelmann*, 1928. 3*M*, 50.

مواد لدرس الشريعتين الاسلامية واليهودية

من المعروف ، من زمن طويل ، ان الشريعة الاسلامة اخذت كثيراً عن المؤسسات اليهودية . وها ان صاحب هذا الكتاب ، وهو من المتضلعين من

آداب اليهود والاسلام ، يسرد عدة من الامثال على ذلك لاسيما في ما يختص بالحقوق العيلية ، فيظهر انه كثيراً ما كان الشارع الاسلامي او المحدّث يكتفي بنقل الشرائع والاحكام اليهودية . ونحن نشير بمطالعة هـذا الدرس القيم على جميع غُواة الحديث والحق الاسلامي. ه . ل .

Georges Soulié de Morant: L'épopée des Jésuites français en Chine 1534 - 1928. *in*-16 *de* 295 *pp.* 1928. *Paris, B. Grasset. Prix:* 12 *f*.

اليسوعيون الفرنساويون في الصين (١٥٣٤ — ١٩٢٨)

قال المؤلف في مقدمته (ص ٧) : « لقد صرفت نحو خمسين سنة ادرس الشؤون الصينية ، واقمت مدة طويلة موظفاً في بلاد الشرق الاقصى ، مكلفاً حماية اعمال الرهبنة اليسوعية وغيرها من الرهبنات ، فراقبتها عن كثب ، وامكنني ان افهم فهماً اوفى قيمة الكلمات والبراهين ، وان استخلص ، من الخطأ ، الاعمال الحقيقية وما يدفع اليها من الدوافع الصحيحة ، فابدد ذاك الضباب السامّ الذي احاق مدة بتلك الحقبة المجيدة والمحزنة معاً من تاريخنا . . . »

ومهما بعدت عنا تلك الحقبة ، فان المطالع بعد ان يقرأ هذا الكتاب المملوء بالحياة والحماسة ، يتحقق شجاعة المؤلف في سرد جميع ما اكتشفه ووصفه . وقد استند ، في اقواله ، الى وثائق لم يدرسها ويستعملها احد قبله من امثال المراسلات بين المندوبين والبابوات ، ورسائل الامبراطور ، واخبار البعثة الفرنساوية . وكلها مواد ثمينة محفوظة في سجلات وزارة الخارجية الفرنساوية . فنالت الكتاب ثقة وقيمة. ج . ل .

Emile Bayard: Le style japonais. *in*-16 *de* 218 *pp. avec* 140 *gravures*. 1928. *Prix:* 12 *f*. *Paris, Garnier Frères.*

الطراز الياباني

ان تكن مزية اليابان في الابتكار الفني مقررة ، فليس القادرون على تحليل ذاك الفن بكثيرين . وعليه فقد قام المؤلف بدرس مفيد اذ وصف فن البناء ، وتزيين البساتين ، والتصوير ، والتماثيل ، وحفر الخشب والشبه ، ثم قطع

الرياش ، والقاشاني ، والسلاح ، والقماش ، والاثواب . وقد قدّم على ذلك معلومات في الفن الياباني على الجملة ، ثم شرح الكلمات اليابانية المستعملة ، وقابل بين حالة ذلك الفن في الامس واليوم ، ملاحظاً ان اوربة اكتشفت اليابان في زمن يلاقي فيه نبوغها الفني مهاجمة عنيفة . وفي الكتاب كثير من الرسوم تزين انحاءه فتنيله اعظم ما يؤمل من القيمة والمنفعة ج . ل .

Il Corano, *nuova versione letterale italiana, con prefazione e note critico - illustrative del* Dott. Luigi Bonelli - *Manuali Hœpli, Milano*, 1929.

ترجمة جديدة للقرآن باللغة الايطالية

نشرت مكتبة هوبلي (Hœpli) سنة ١٩١٤ ، ترجمة ايطالية للقرآن قام بها احد مبتدئي الطلاب ، فأتت ملأى بالاغلاط والتحريفات . اما هذه الطبعة الجديدة فهي من قلم عالم بالعربية معروف . تبع فيها طريقة الترجمة الحرفية بقدر ما سمحت له اللغة الايطالية من الدقة حتى اذا خاف ان يشكل المعنى وضع بين معقفين ما يلزم للايضاح من الزيادات . وقد علق حواشي قصيرة تظهر انه من الواقفين على مسائل التفسير القرآني . ه . ل .

A. Leman : L'Eglise dans les temps modernes. [*Biblioth. cathol. des sciences religieuses.*] *vol. in-16 de 200 pp.* 1928. *Prix* : 10 *fr. Paris, Bloud et Gay.*

الكنيسة في العصور الحديثة

لقد جمع المؤلف في مائتي صفحة مظهراً فسيحاً لحياة الكنيسة من عصر النهضة الى زمن الثورة الفرنساوية . فجاء الكتاب كثير الايجاز ولكنه وافر الصحة دقيق ، تامّ ، يذكر النقائص والتقهقرات ، ذكره للفضائل والامجاد . واكثر مادته تدور حول موضوعات ثلاثة مهمة في تلك العصور وهي : النهضة ، وما يدعونه « بالاصلاح الديني » ، ومظاهر عدم الايمان البادية في القرن الثامن عشر . وعلى الجملة فان فائدة الكتاب جزيلة لجميع من لا تمكنهم اعمالهم من صرف الوقت في تصفح المطوّلات ، سواء كانوا من الاكليروس او العلمانيين .

لاسيما وان تلك العصور التي قد تظهر بعيدة عنا لا تزال اساساً لكثير من الحوادث التي نشاهدها اليوم ، وقد نقوم بها متأثرين بوطأتها . ج . ل .

G. Jannéau : Les sièges, 2*vol.* 16 × 23, 90 *illustr. Collection des Arts décoratifs, chaque volume* : 10 *f*, *Librairie d'Art R. Ducher.*

المقاعد

لم يكن بامكان الجميع الوقوف على تاريخ الرياش والاثاث الّا في كتب ضخمة ، ومجاميع غالية ، حتى ظهرت هذه المجموعة موفّرة لقُوّاة الفنّ واصحابه والنقّابين ، والمعلّمين ، مجلّدات اعتيادية ، موجزة ، واضحة ، ورخيصة الثمن مع وفرة ما فيها من الصور والرسوم . وقد ظهر منها مجلّدان ، يسرد فيهما المؤلف ، وهو استاذ في مدرسة اللوفر الشهيرة ، تاريخ الكراسي والمقاعد من عهد اليونان والرومان حتى ظهور الطراز الامبراطوري . وقد اجتهد في طبع الصور اجتهاداً كبيراً فأتت كلّها موافقة للنصّ موضحة له . وسيتبع هذين المجلدين ثلاثة يتمّ بها تاريخ الرياش .

ج . ل .

Delos O. P., Leman. Prelot (M.) et Danel (J.) : La Société internationale. *Préface de* Mgr. Beaupin. 1 *vol. in*-12, *broché* : 7*f*.50. *Paris, J. de Gigord.*

الجمعية الدولية

وُضع هذا الكتاب الصغير خاصةً للاساتذة ، والمهذّبين ، وسائر من يعنون بالاتصال مع الشبّان والتأثير فيهم . وغايته ان يُطلعهم ، في ما يخصّ آراء الكنيسة في جميع العلاقات الدولية ، واعمالها الماضية والحاضرة في سبيل تقريب السلام ، وجمعية الأمم ، ونظام العمل الدولي ، على معلومات واضحة صحيحة مستندة الى وثائق اكيدة ، تمكّن الجميع من الخوض في هذه الموضوعات الدقيقة بطمأنينة ونجاح دون ان يحطّوا من شأن العواطف الوطنية . وقد قام بهذا العمل اربعة من اساتذة المعاهد الكاثوليكية في ليل ، وكلهم متخصّص بالمادّة التي يكتب فيها .

E. F. Gautier : Le Sahara. *in*-8° *avec* 10 *figures et* 20 *illustr. Prix :* 24 *f*. *Paris, Payot.*

الصحراء

مؤلف هـذا الكتاب استاذ في جامعة الجزائر منذ سنة ١٩٠٠ ، وهو من اشهر عارفي الصحراء وقد جال فيها من جميع جهاتها . فنشر سنة ١٩٢٣ مؤلفاً عنها ، وقد اعاد طبعه اليوم بحجم اكبر ، وشرح اوفى ، وتصاوير جمة ، مضيفاً الى معلوماتـه الشخصية اقوال غيره من الرحّالة ، مظهراً لنا الصحراء مجـلاة ووضوح . وان من افيد ما في الكتاب تلك الصور المأخوذة من الطيّارة وهي التي توضح اكثر من غيرها مناظر تلك الفيافي الفسيحة . ج . ل .

L'art japonais, 56 *illustrations* — L'art indien et l'art chinois, 44 *illustr.* — 2 *vol* : *in*-8°, *Collection* « *La grammaire des styles* », *Librairie d'art* R. Ducher, *Paris*.

الفنّ الياباني – الفنّ الهندي والفن الصيني

تمت هذه المجموعة المفيدة فنالت من الرواج مـا تستحقه لانها تضع امام الدارسين مجلّدات بحجم مقبول جميلة الظاهر ، واضحة المعاني ، تفيد حتى أبعد الناس عن التخصص بهذه الشؤون بمـا تظهره من خصائص الفنون وتطوّراته بالرسوم المتعدّدة والشروح الموجزة . ولها ايضاً في التعليم فائدة جزيلة بما تبسطه من الدقائق الفنيّة والتحديدات الجامعة المانعة . وهي امور قد لا يراها الدارس في كثير من المجلدات الضخمة .

كتاب اخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين

لابي بكر الصنهاجي المكنى البيذق – اعتنى باخراجه من الخزانة الاسكريالية وتصحيحه وترجمته خديم العلم ومحبه الاستاذ إ. لاڤي بروڤنسال .
بولس كتر الكتبي بپاريز ، ١٩٢٨ ، ثمنه ١٦٠ فرنكاً

عنوان الكتاب دليل على فحواه . هو اخبار نشأة الموحدين الذين ملكوا اكثر من قرن على المغرب ، وبسطوا سلطـانهم ايضاً على تونس والجزائر (١١٤٧ — ١٢٦٩) . واننا لنتعلم منه خاصة اخبار مهدي « الموحدين » وخليفتهم

الاول ، عبد المؤمن ، وكل ذلك أخذاً عن مخطوطات عربيـة غير مطبوعة مأخوذة من مكتبـة الاسكوريال (اسبانية) . نشر صاحب الكتاب المتن العربي بتدقيق جزيل واضاف اليه ترجمـة افرنسية حسنة جداً ومده بكنوز شروحاته الغزيرة في مجاهل تاريخ الغرب . كنّا ذكرنا في المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٩١٣ ...) ان اللغة التي استعملها المسلمون في اسبانية لم تكن العربيـة ، ولكن لغة البـلاد التي كانوا قد استوطنوها . وها ان المؤلف الذي حللناه يمكننا من اعادة القول ذاته في ما يخص المغرب على ايام « الموحدين » فان الكتاب لا ينوه بذكر عشيرة عربية الا مرة واحدة (ص : ١٢٠) امـا في ما بقي فلا ذكر الا البربر ، فالسكان بربر ، ولغتهم بربرية . وانك من مطالعة الآثار المطبوعة اغلاطها ومن المتون البربرية العديدة ، تشمّ رائحة الاصل وتقول: من سطر هذه الاسطر لم يكن قابضاً على ناصية العربية. ه . ل .

تفسير القرآن الحكيم

تأليف السيد محمد رشيد رضا

تفسير سلفي اثري مدني عصري ارشادي اجتماعي سياسي . وهو المشتهر باسم تفسير المنار . الجزء التاسع . مطبعة المنار بمصر ١٩٢٨ — ص ٦٦٨ + ق ٨ ثمن ٣٥ غ . م .

هذا الكتاب متصل بتفسير ضخم ينشره صاحب المنار في مجلته منذ اعوام اخذ به التفسير من الآية ٨٧ السورة ٧ (الاعراف) ، الى الاية ٤٠ السورة ٨ (الانفال) ، وهو اوسع من ان يناله التحليل . ولكن حسبنا الاشارة الى بعض ما عرض فيه من الآراء فيقف منها القارئ على اسلوب المؤلف . قال (ص ٤٨٢) ان آثار البشر وجدت في الدنيـا « منذ مئات الالوف » من السنين [كذا] وحمل حملة عنيفة (ص ١٠٣) على الحسين بن علي ملك الحجاز السابق ، وطعن بالاتراك الكماليين (ص ٣١٧) وفي مواضع كثيرة . واسهب الكلام وافاض (ص : ٢٩٢) في الانجيل المنسوب زوراً الى برنابا وعظم شأن ذلـك المؤلف التاعس ، واتهم المسيحيين (ص : ٣٠٩) بسقوطهم في عبادة الاوثان والصور [كذا] امـا القديس بولس فليس هو في زعمه (ص ٢٥٠) الا « من المنافقين

للكذابين » وجاء في القرآن عن اليهود : « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ». فهل مسخوا قرودًا ؟ اجاب المؤلف (ص ٣٧٩) : من الممكن ان يفهم ذلك المسخ « مسخ خلق ونفس » اي مجازًا . واحتجّ على الرقص (ص ٥٩٦) والحق معه في ذلك. وحاول (ص ٢٧٧) ان يبرهن ان محمدًا هو الفارقليط المذكور في الانجيل . وقال (ص ١٧٥ الخ) ان اول ما خلق في الكون الكهرباء. وقد يجد المطالع في نهاية الكتاب فهرساً للموادحسناً ، ويود لو ان ورقه وصف حروفه وطبعه اقرب منه الى ما يرام. ه . ل .

جان دارك عذراء اورليان

مأساة ذات تمهيد وخمسة فصول تأليف الشاعر شيلر ، تعريب شديد باز الحداد
المطبعة العلمية ليوسف صادر بيروت ، ١٩٢٨ ، قطع ٨ ، ص ٩٠

في هذا العام يعيدون في فرنسة التذكار المئوي الخامس لدخول البطلة والقديسة جان دارك مدينة اورليان منتصرةً على الانكليز . فكان من ثم تعريب هذه الرواية حسن الوقع كالزهرة في ربيعها . ليس المقام لتحليل رواية شيلر الشاعر الالماني الشهير ، وحسبنا القول انها من آيات الفن الروائي وان لم تكن في كل وقائعها مطابقة للتاريخ كما اشار الى ذلك صاحب مجلة المورد الصافي في ذيل الرواية . وهي اعلى غاية واتقن اسلوباً وابرع فناً من عشرات الروايات التي تظهر كل عام . فنهنئ معربها.ونشكر لحضرة الاستاذ جرجس الخوري المقدسي ، صاحب مجلة المورد الصافي ، هديته الجميلة. ف . ت .

منتخبات ادبية : الجزء الثاني

للاب بشير آجيا اليسوعي
المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٨ قطع ١٢ ، ١٥٣ ،

ظهر الكتاب منذ اشهر عدة وفاتنا ذكره .ولكن لم يفت المدارس ظهوره فتهافتت على طلبه بالمئات مما يغني عن اطرائه ، وحسبنا القول ان الاب آجيا اودع مؤلفه خيرة ما استقاه من مواضيع ادبية ومشروحات وفوائد طيلة سنين عديدة قضاها في ادارة الدروس العربية . واننا نتمنى له ان يختم سلسلة المنتخبات فيفيد الناشئة واساتذتها في الصفوف المدرسية كلها.

كتاب الاغاني: الجزء الثاني

لابي الفرج الاصبهاني

مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨، ٥٢٣ صفحة، قطع كبير

في «مشرق» نيسان من السنة الفائتة (٢٦[١٩٢٨]٢٩٠) بشّر حضرة الاب صالحاني طلّاب الادب العربي بظهور كتاب الاغاني في حلّة تليق به، وهي الطبعة النفيسة التي اظهرته بها مطبعة دار الكتب المصرية. فاثنى على اريحيّة السيد علي راتب الذي تبرّع بنفقات طبع القَي نسخة منهُ، وشكر للقسم الادبي في دار الكتب اهتمامه بتنفيذ هذا المشروع الجزيل النفع. ثم درس الجزء الاول مبدياً بعض ملاحظات قبلتها لجنة نشر الكتاب بشكر، وعملت بها كما اشارت الى ذلك في مقدّمة الجزء الثاني. وهو بين يدينا نراه متّصفاً بجميع صفات الوضوح، والترتيب، وجودة الورق، وجلاء الحرف، التي ميّزت سابقه. اضف الى ذلك ندور الاغلاط، والاجتهاد في ضبط الاعلام والغريب، وفي تحقّق نسبة الابيات الى اصحابها ممّا يوفّر للمطالعين اللذة والفائدة، ويصرف عنهم عناء البحث والتفتيش.

وقد جمع هذا الجزء اخبار مجنون ليلى، وعديّ بن زيد، والحطيئة، وابن أرطاة، وابن ميادة، والحكم بن عبدل من الشعراء؛ واخبار ابن عائشة، وحنين الحيري، والغريض من المغنّين. وانتهى بثلاثة عشر فهرساً واسعاً اتت مع الشروح والتعليقات غاية في المنفعة، على خلاف ما يعتقده البعض اذ يتصوّرون ان لا فائدة في ذلك الّا للمستشرقين ... فنحن نكرّر شكرنا لمن قام ويقوم بهذا العمل الكبير، ونستحثّ همهم على مداومة السير في الطريقة التي اختطوها انها المستقيمة المثلى. هذا وقد ورد في الصفحة ٤٢١[١١٦] بيتان لم يذكر صاحبهما؛ فنقول، خدمةً للحقيقة، انهما للاخطل ذُكرا في ديوانه، في الصفحة ٤٨ من طبعة حضرة الاب صالحاني.

ف.ا.ب.

ديوان الشهيد عمر حمد

مطبعة وزنكوغراف طاره ، بيروت ١٩٣٩ – ص ٩٦ ، وسط

ان لم يكن لشهدائنا من نصب تخلّد ذكراهم بين الاحفاد ، فلا اقلّ من ان تُنشر آثارهم القلمية ، فيرى المطالعون ما كان يجول في صدورهم من العواطف الحماسية ، وفي ادمغتهم من الافكار الرامية الى تعزيز القومية ورفع منار الوطنية وهذا ما شاء طابعو الديوان اذ جمعوا فيه مختارات من قصائد عمر حمد ، وهو احدى ضحايا جمال السفاح ، واردفوها ببعض ما قيل فيه من قصائد الرثاء . اما المقدمة فهي من قلم الاديب المعروف الاستاذ عمر الفاخوري . ف١٠ب .

ديوان بدر الدين الحامد

مطبعة الاصلاح ، حماه ، ١٩٣٨ – ص ١٩١ وسط

تحيي هذه الزهرة الادبية النابتة في رياض حماه ، ونؤمل ان تكون باكورة خير تتبعها سلسلة طويلة من الآثار الادبية في مدينة «النواعير» المطربة . فتجاري اخواتها من مدن سورية ولبنان في تلك الحركة المباركة ، حركة التأليف والنشر . اما الشاعر فشابّ تتموج عواطفه بين «ابتسام الصباح» «وليالي الرياض» و «هيئة النواعير» والاودية والاطلال . وقد تهيب بها انغام الوطنية فيرقصها موثرة هائجة . وهو في كل ذلك لا يخلو من سلاسة وعذوبة وان احتاج الى ضبط واتساق وحسن ذوق يظفر بها ان شاء الله . وقد كتب مقدمة الديوان الاستاذ شفيق بك جبري ، عضو المجمع العلمي الدمشقي . ف١٠ب .

اختلال التوازن العالمي

تأليف الدكتور غوستاف لوبون — تعريب صلاح الدين وصفي

عني بنشره الشيخ يوسف توما البستاني – مطبعة العرب ، مصر ، ١٩٢٧ – ص ٤٤٠ صغير

للدكتور غوستاف لوبون شهرة ثابتة في العلوم النفسية لا تزعزعها اوهامه وآراؤه المضطربة ونظرياته المتقلقلة في الشرق والشرقيين . فكان اذاً افيد ما ينقل الى لغتنا من كتبه تلك الابحاث النفسية التي يدرس فيها تطورات الكون وتوازن الشعوب على طريقة اجمالية . ومنها المؤلف الذي نتكلم عنه اليوم ، وقد قسمه صاحبه الى سبعة كتب بحث فيها في عدم التوازن السياسي ، وعدم

التوازن الاجتماعي ، وعدم التوازن المالي ومنابع الثروة ، واختلال التوازن الاقتصادي في العالم ، والقوى الجماعية الجديدة ، وكيف تتكون عقلية الامة ، والمحالفات والحروب ؛ مفتشاً في كل ذلك عن الاسباب والنتائج . فكان كتابه مثالاً حسناً للنهج في البحث العلمي وان لم يوافقه النجاح في جميع النقاط . فنحن نشكر للمعرب اجتهاده في ابراز الكتاب ، ونشكر لصاحب مكتبة العرب اهتمامه بنشره مضيفاً خدمة جديدة الى خدماته السابقة في سبيل اللغة والادب . وقد وددنا لو كان اسلوب الكتاب امتن مما هو عليه ، ولو جُعل له فهرس واسع ، ولو تروى المعرّب في تعليق بعض شروحه . ف.ا.ب.

* البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم * سنوه الاخيرة بقلم ابن اخيه الشماس توما مظلوم ، عني بتعليق حواشيه الاب الياس اندراوس البولسي . مطبعة القديس بولس في حريصا لبنان – هو الجزء الثاني من مجموعة نفيسة اطنب المشرق في ذكرها (٢٥ [١٩٢٧] ٧٧) وفيه تتمة حياة البطريرك الكبير في سفره من دمشق الى بيروت الى الاسكندرية الى مصر ، واعماله في سبيل الطائفة الملكية الكاثوليكية ومرضه الاخير ووفاته . وللكتاب ملحقات وفهرس لاسماء العلم . فنشكر للاب اندراوس عمله وللسرة هديتها .

* هدية الكشاف الثانية لعام ١٩٢٧ : محمد والمرأة – ابن خلدون في المدرسة العادلية – محاكمة وزيرين في امرين حطيرين * محاضرات الشيخ عبد القادر المغربي * مطابع قزما * قطع ٨ ص ٨٢ – قال المؤلف (ص ٦٣) ان ابن خلدون اول من ابتكر طريقة المذكرات (mémoire) [كذا] وحذا حذوه علماء الغرب . ولكن فات حضرة الشيخ ان المؤرخ جوانفيل الذي مات قبل ان يولد ابن خلدون بـ ١٥٠ سنة كان قد الف مذكرات (mémoires) (راجع هذا العدد والذي سبقه من المشرق) . اما كلامه في مجمع ماكون فراجع الرد عليه في المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٣٨٦) .

* ان الله امونا * المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٢٩ – هي رسالة رعوية زفها السيد ثوفيلس يوسف وبآبي مطران حمص وحماة وتوامها الى ابناء ابرشيته في الوطن والمهجر مناسبة لاول تذكار سوي لسيامته للاسقفية قرأناها فاستطبناها وهي مذيعة بالآيات الكتابية حيّة بروح النعرة الرسولية مضطرمة بمحبة الله مزدهرة بالعواطف المشوعية الصادرة عن ايمان عظيم فيا ليت نشيدها يبلغ آذان اخواتنا المنفصلين من الدربان فيستأنسوا بصوت الراعي ويثوبوه الى حظيرة المسيح الواحدة .

* جمعية شأن القديس لويس غونزاغا في كلية القديس يوسف * نبذة تاريخية نشرت بمناسبة يوبيل الجمعية الفضي ١٩٠٣–١٩٢٨ .

* حبّ يوسف الصديق وقبره الشريف * تحقيقات واستنتاجات بقلم عبدالله مخلص . المطبعة السلفية . مصر ١٣٤٨ .

اهمّ حوادث الشرق في شهر

١٥ شباط — ١٥ آذار

في ٢٣ شباط ، ارسل مجمع الكنيسة الشرقية المقدس الى السيّد فريدبانو جيانيني ، القاصد الرسولي ، يملء بانفصال فلسطين وشرقي الاردن وجزيرة قبرس عن قصادة سورية والحاقها بقصادة مصر ، كما الحقت بها الحبشة. وجدير بالذكر ان قصادة سورية انشئت رسمياً (١ في ٢٧ حزيران سنة ١٧٦٣ وهي اقدم قصادة للكرسي الرسولي في العالم . وكانت تشمل سورية وفلسطين ، والاناضول ، وقبرس ، وجزيرة العرب ، ومصر اولاً . ثم فُصل عنها الاناضول سنة ١٨١٨ ، وجزيرة العرب ومصر سنة ١٨٢٨

تصدّت الصحافة الافرنسية الى خبر تأجيل الجمعية التأسيسية فاسمعتنا صوتاً لا بد من ان نميزه آذاناً صاغية : وهو انه اذا تركت فرنسة السوريين وشأنهم فقد يؤدي بهم الامر الى الفوضى والحروب الاهلية .

حدثت بعض المناوشات على الحدود بين رجال الحكومة والعربان المخيّمين بالغرب من الحسكة ، بسبب مقاومة العشيرة لأمور الريجي ومأموري الكمرك .

واغلقت مدينة حمص ومنع التجول فيها ليلاً ، لان بعض السكان ساعدوا اللصوص على الحكومة وفرضت عليهم غرامة مالية .

كان قد اذيع بين الناس (٥ شباط) بلاغ الحكومة اللبنانية عن نتيجة المفاوضات في شأن الديون العثمانية . وفي اواخر شباط كانت حكومات سورية وجبل الدروز وبلاد العلويين قد وافقت على ما أُمضي من الاتفاق بشأن الديون لما عرضت على مجلس النواب اللبناني للموافقة عليها . فثار ثائره لان البلاد اللبنانية لم تستفد من دين تركية لتأخذ على عاتقها وفاءه . ولكن اغلق باب المناقشة بوجه المعارضين وأُقرّ الاتفاق بالاكثرية (٢٧ شباط)

ما برح حبل الامن مضطرباً على الحدود العراقية—النجدية : وقد ساءت بريطانية دبابانها على الوهابيين . وجاء من البصرة (٨ اذار) ان معركة دارت بين قوة الطيران الملكية وست مئة من الوهابيين ، شوهدوا عائدين باسلاب القبائل العراقية والكويتية . لكن البلاد في داخليتها آمنة . ولم يفلتْ المنقبون عن اعمالهم ، فاكتشفوا في اور الكلدانيين وفي خرائب تركلان ، على مقربة من كركوك ، آثار مدنية عظيمة يرقى عهدها الى ثلاثة الاف سنة قبل المسيح . وحُفر في بلاد الموصل آبار للبترول جديدة .

وقد جاء من شرقي الاردن ان الحكومة اصدرت قانوناً منعت به تجارة الرقيق ومنحت المحاكم سلطة امتناق الرقيق .

ف . ت .

---

١) راجع المشرق (١٢[١٩٠٩]٢٠٠)